مكتبة الأسرة 2000

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

وقفة قبل المنحدر

من أوراق مثقف مصري ١٩٥٢ - ١٩٨٢

علاء الديب



لوحة للفنان: أحمد فؤاد سليم

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

وقفة قبل المنحدر

وقفة قبل المنحدر

الطبعة الثانية

علاء الديب

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

وقفة قبل المنحدر

علاء الديب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

من أوراق مثقف مصرى

١٩٥٢ - ١٩٨٢

هذه أوراق حقيقية،

دم طازج ينزف من جرح جديد.

كتابتها كانت

بديلاً للانتحار.

شعوري غداً ..

سيكون كشعوري اليوم.

أكره، أن أرى ..

تلك الشمس المسائية .. الغاربة.

ذاكرتى حياتى. أدافع عنها وكأنها حريتى .

ذاكرتى للوجوه من حولى، لنفسى، للمواقف، للأحداث :

المجسم منها والمسطح. مايجرح ويسيل الدم، وما يتسلل بطيئاً إلى العظم والنخاع .

ذاكرتى للأيام والليالى، للشمس والقمر .. لتبدل الفصول والأحوال .

ذاكرتى للمرض والمحنة. ذاكرتى للضوء، وظلام الهاوية .

ذاكرتى : حريتى، عذابى. أتمسك بها وتتمسك بى .

مع ذاكرتى، أحارب ... آخر معاركى، وفيها لا أقبل الهزيمة.

* * *

منذ سنوات شاهدت فى قاعة سينما شبه خالية فيلم «هيروشيما .. حبيبى ». وأدمنت الذهاب لمشاهدة الفيلم .

أشاهده مرتين وأحياناً ثلاث فى اليوم الواحد. أدقق فى وجه البطلة النحيل المؤثر. أدقق فى الكلمات الفرنسية. يصلنى منها مايشبه طلقات الرصاص. وأرى مأساة هيروشيما فى اليابان، ومأساة الحرب العالمية الثانية فى أوروبا، تتعانقان، تصنعان سحابة تظلل العالم كله. تضع حياتنا تحت وضوح لاهب لعدسة مكبرة فى حجم قرص الشمس .

وقفت « ايمانويل ريفا » بطلة الفيلم، أمام صور جثث آلاف الرجال والنساء، والأطفال، وقد شوهتهم الإشعاعات الذرية، وحولتهم الى ركام غير إنساني، يفوق فى بشاعته أفظع الكوابيس، تأملتهم وقالت :

- كل ما أريده هو أن يكون لى ذاكرة، لا تعرف الصفح، أو النسيان. ذاكرة لا تقبل العزاء.

المصيبة الكبرى أننا ننسى. هل ننسى لأن الحياة مع الذاكرة الواضحة الحية مستحيلة ؟ أم أن النسيان عملية تحايل رخيص لنحصل على المتع السريعة التى تقضيها لنا، لحظات حياتنا المفككة.

البشر ينسى، والأمم تنسى.

الإنسان المتحضر هو من يبقى تاريخه حياً ...

الأمم المتحضرة، هى التى لا تدفن تاريخها، ولا تكرر مآسيها يقول كاتب كوبى .. يصف حال شعبه، كواحد من شعوب العالم الثالث :

«نحن لا نعرف المدنية، لأن التمدن هو القدرة على ربط الأشياء بعضها ببعض، دون إهمال شىء. أو نسيان شىء. إننا ننسى الماضى بسهولة، وننغمس كثيراً فى الحاضر»

لا أحد يشعر بمعنى التخلف، قدر ذلك الكائن الذى يطلق عليه «المثقف» .

« المثقف »، تركيبة غريبة تطمح دائماً إلى أن تعيش فى المعانى المطلقة والمجردة للأشياء. أقدامه مغروسة فى طين الواقع، وعيونه الفاحصة المدربة، قادرة على اكتشاف أصغر مافى واقعه من متناقضات مزعجة .

إحساسه المركب المعقد، قادر على تكبير الأخطاء، ورؤية ماخلفها من معانى ودلالات. الأدهى والأمر .. أن أغلب أحلام المثقف مرتبطة بفهم الواقع، بل وبالعمل على تغييره. وضعه المعلق دائماً بين الحلم والواقع، يجعل منه وتراً مشدوداً. وضعه هذا يجعله يعيش اللحظة مرتين ... يذوق المر ... مرتين. ويندر أن يبقى فى فمه طعم لحلاوة .

لا أستطيع أن أنكر أن إحساسى بالتخلف، هو زادى وشرابى. إحساسى بالتخلف غصة فى الحلق. النظر إلى الواقع من حولى، يزيد الشعور به احتداماً

[ليس «التخلف» فقراً فقط. إنه كائن أخطبوطى : ولد فى الظلام من الفقر والجهل. وعاش فى الغفلة والبلادة. تربى فى العجز وضيق الأفق. التخلف بالنسبة لى جسد حى، أصارعه فى كل لحظة من لحظات وجودى. فى بيتى، فى عملى، فى الشارع، فى الوجوه، والمشاعر فى مداخل المدن وتحت الكبارى، فى العلاقات بين الناس، فى الحب ... فيما أقرأ وأتناول .. فيما أرضى عنه وفيما أرفضه .

شىء واحد واضح فى وسط كل هذه القتامة، يبدو ناصعاً، وكأنه شمس منتصف الليل. هو أن هذا الشعور بالتخلف لم ينقلب إلى شعور مزمن « بالقرف » أو الاشمئزاز ... لا من النفس ... ولا من الواقع .

شعور – بالتخلف – يدفعنى لسبب لا أدريه، إلى مزيد من الانتماء. مزيد من الارتباط. مزيد من ذلك الحلم الساذج، البسيط، المستحيل : الحلم بأن أعيش، ويعيش الناس من حولى واقعاً جديداً.

* * *

سنة ١٩٥٢، هى السنة التى أبدأ فيها تقليب كراسة المثقف البرجوازى الصغير . ٥٢ ليست هى – فقط – سنة ثورة يوليو. ولكنها – أيضاً – السنة التى أصبح فيها من حقى، أن أنزل إلى القاهرة – وحدى – من الضاحية التى أسكن فيها . أصبح فى جيبى «أبونيه» للمترو، وقروش قليلة، وأحلام تسع العالم كله. دارت فى رأسى كلمات الكتب، واستحالت شخوص السينما، وشخصيات المسرح إلى أبطال، ومثل عليا، ألقت فى تلك السنه بذور الكائن الذى لم أستطع أن أكونه. كانت وما أعقبها سنوات، خضراء، وردية. كل شئ فيها جديد. انبهار ممتع بكل شجرة، وناصية، ومقهى. بكل معنى، وكل صديق. شعور بالتناسق والحلم، والشعر، يسرى فى الدمـــاء مع العـــروق، ويدفع الخطوات فى الليل والنهـــار، بين

المخلوقات والكتب، جاعلاً منى عنقاء سعيدة، آفاق حياتها وتحولاتها بلا حدود.

كل ما يحدث حولى من تغيرات كان يدفع إلى التفكير. اكتشاف التفكير، كأنه الوقوع فى الحب، أو لعله أقوى وأغرب أثراً. الموضوع، لا جسد له. مطلق، منتشر فى كل الكائنات. ولذة التفكير والاكتشاف تقودنى إلى غابات، وسهول خضراء بلا حدود، تسمعنى موسيقى الوجود، بكراً، تولد لأول مرة. تذيقنى خمراً هى الثقة بالنفس، والتواجد فى مركز الوجود.

كنت ذلك الإله الصغير، القادر على فهم كل شئ بلا تردد، القادر على الحلم بأى شئ دون حدود، الإله .. الذى يعانى عذاباً مقدساً هو عذاب النمو والنضوج. معانى الكلمات ساكنة فيها مستقرة : الحب يعنى الحب. الوطن يعنى الوطن. الشرف هو الشرف. لم يحدث بعد، أى خصم أو إضافة، ولم تجرى فى العقل والشعور - بعد - حسابات مستترة فى الخفاء.

أحمل على أكتافى : مسئولية تغيير العالم، ليست مسئولية نظرية أتكلم عنها - لكنه شعور أكيد. أمارسه فى كل لحظة، ويرتبط بكل خطة صغيرة أقيمها، أو جدول أصنعه لتنظيم اليوم. العالم حضن أب كبير، يضمنى فى فرح، ويرصد حركاتى فى اهتمام.

ما أقصر ذلك الوقت. وسرعان ما تتبدل الفصول.

على تلك الصخور الملعونة : الحقائق، الإمكانيات والظروف،

أرى- كائناتى الأثيره الوردية تتحطم فى صمت. دون دماء أو صراخ أو مأسى تتحطم فى صمت كأنها لم تكن.

أشاهد تحطمها : صاغراً، بليداً، متخلفاً. غير قادر حتى على تحطيم سور بيتى، أو تخطى حدود مدينتى.

مسئولية تغيير العالم تتحلل إلى تمرد عليه، والتمرد ينفك إلى إحساس بالغربة والاغتراب. والغربة تقود إلى رصد الملل ومتابعة التكرار.

شعورى غداً ..

سيكون كشعورى اليوم.

أكره، أن أرى ..

تلك الشمس المسائية .. الغاربة.

* * *

أدركت مبكراً معنى انتمائى للطبقة المتوسطة. معنى أننى برجوازى صغير. جئت من أبسط أنواع الطبقة المتوسطة. حيث لامال، ولا حرفة. مجرد وظيفة حكومية، ودخل ثابت، وعلاوة دورية، ودرجة جديدة، يحتفل البيت بحصول والدى عليها، كل أربع أو خمس سنوات.

إدراك الانتماء للطبقة المتوسطة .. ليس كمجرد الانتماء إليها أنه يقضى على الاستمتاع بلذائذها، وكسلها، ولا جدواها.

إدراك الانتماء يجعلنى أرى الحدود.. حيث تتكسر القيم. ويصبح القلق، والإحباط، والعجز، هو الفتات الذى يتبقى فى كفى.

يصبح عالمى .. محيطاً من الغربة .

كان يتردد حولى أن الطبقة المتوسطة هى الحاكمة، هى المسيطرة على البلد. لكن رؤية الفلاحين الكادحين من الفجر إلى الغروب. وورديات العمال تخرج من المصانع، يؤكد لى فى إلحاح لا يتوقف، وإصرار يحطم، كل غفلة أو تغافل :

أن العمل هو القيمة الوحيدة. وأنه هو نعمة الوجود الكبرى. وأن الطبقة المتوسطة بكل قيمها، وتقاليدها، وأساليبها فى السلوك تحاول أن تنفينى بعيداً عن العمل. وأن تعلمنى سبل التحايل، ورذيلة «الوصول».

وهأنذا – مازلت – أحاول أن لا أتعلم.

عشت أغلب التجارب التقليدية للمثقف البرجوازى الصغير إلا السجن لم أسجن خلال تلك السنوات الطويلة. لكننى قلت لنفسى فى بعض الأيام «السجن أحب إلىّ .. مما ...». كان السجن فى بعض الأيام أحسن من البقاء فى الأرض المفتوحة الخراب التى سكنت فيها الأصوات والآراء .. وحتى القدرة على الاختلاف مع النفس.

كان علىّ أن أعيش السجن فى بيتى، وشارعى، وعملى. كان

علىّ أن أضاجع كل ليلة جسد الحلم الميت والآمال المحبطة.

قضيتى ليست سياسية فقط. كنت عضواً فى شعبة الأُخوان المسلمين فى الحى الذى أسكن فيه. وكنت «رفيقاً» فى تنظيم «شيوعى» قديم، وكنت عضواً فى هيئة التحرير، وفى تنظيم عبد الناصر الطليعى. كنت فى كل تلك التنظيمات موجوداً.. كرقم. اسم فقط يزيد عدد الأعضاء عضواً، لم أشعر أبداً، أننى أفعل شيئاً، أو أننى أقوم بعمل حقيقى مؤثر.

قال لى أحد المسئولين عنى فى تنظيم من التنظيمات :

أنت مثقف سفسطائى. أنت برجوازى صغير .. أنت لا تريد أن تفعل شيئاً!

كنت أعرف أن السفسطائيين هم الذين يقتلون أنفسهم بحثاً عن الحقيقة بالأسئلة، حتى الانتحار.

أسئلة، ولا حقيقة، ولا انتحار ...

وقال لى مسئول فى تنظيم آخر ... فى لقاء سرى، أمام مقهى جانبى، فى شارع فرعى :

– الآن يجب أن نتوقف عن اللقاء. أجهزه الدولة مضطربة. المباحث تضرب فى المخابرات. لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث !

من البداية وأنا أعرف أن السياسة، هنا فى بلادنا، طين لزج. أو رمال ناعمة سريعة. رمال يمكن أن تغرق فيها أو تركبها، كلمات

بينها وبين الواقع، هوة سحيقة.

قال لى ناقد يعد دراسة أكاديمية عن الرواية :

نحن يا سيدى لا نستطيع أن نرى واقعنا ... أو نعبر عنه لأننا يجب – أصلاً – أن لا نتكلم : لا فى الدين، ولا فى الجنس، ولا فى السياسة .

كنت أضحك، ولكنه ضحك كالبكاء. ففى كلامهم شىء من الحقيقة .

أقلب فى كراسة المثقف البرجوازى الصغير .

أتعامل معها بإحساس بالخجل والضآلة. كلها صفات مشبوهة تدعو أحياناً للسخرية، وأحياناً للرثاء. وتعتبر بالنسبة للحكام أو المنظرين فى بعض الأحيان تهماً ومدعاة للإدانة .

من ظل يحملها يعتبر فى أغلب الأحيان « عقبةً »، أو شخصاً لا دور له .

لكنها صفاتى. وأنا أحملها .

تهمة لا أنكرها، وشرف أستطيع – بصعوبة – أن أدعيه .

من المؤكد أنني كنت دائماً أنتمي إلى عرق منحط لايستطيع فهم الثورة، إن شعبي لن ينتفض إلا لينهب، مثل الذئاب تنقض على الفريسة التي لم تقتلها.

«رامبو»

أيوب لا تنس المحن!

رأيت أكثر - بكثير - من أن أكون بريئاً.

لا، لم أعد بريئاً.

مذنب، ومشارك، وضالع في الإثم.

أرى الأشياء تتفتت. أراها تفقد حقيقتها ومعناها. أراها وأعيشها. وأسلك في دروبها، وآكل في أطباقها. البلاستك القذرة.

تطاردني دائمًا فكرة القرون الوسطى، حيث المتناقضات متجاورة لم تتصارع بعد، ولم تتحد بعد، أو تختلف. متجاورة في قسوة وفجاجة. أراها غنية، شيقة، حبلى بالأمل، والطين.

رسم الرسام «بيتر بروجل الكبير». صوراً أراها تطاردني وتصبح جزءاًمن واقعي.

بروجل رسام عاش من ١٥٢٥ إلى ١٥٦٩، في قسوة أوروبا الشمالية الباردة، وهي مازالت تتكون، مدناً، قوية، قاسية، مليئة بالطاعون، والأمراض، والفقر، ومحاكم التفتيش، وظلام الجهل والسحر والشعوذة وسطوة المال.

بروجل رسم تلك المدن، بعقل يقظ، وعين لا تجفل أو تخاف.

لوحته التى يطلق عليها « لعب أطفال » :

ساحة مدينة صغيرة، بها آلاف البشر، فيها الميلاد والموت الرقص والبكاء، اليد المقطوعة، وخد العذراء. البيت والحقل والتراب والبهلوان والتاجر والمشنوق ، وفى خلفيتها غروب وشروق يحيطان بمشاهد الحياة .

أرى لوحة «بروجل» فى زحام حياتى، فى يومى الضائع، فى ضياع حياتى، ضياع .. ولكنه غنى بالملاحم .

أقول لنفسى دائماً : كل هذا التفتت يسعى إلى واحد. إنه ميلاد حركة .

ضياعى أنا .. ليس ضياعاً أوروبياً.

لو أننى استطيع أن أجد لنفسى عدواً، لكان هذا العدو - هو - تلك العبودية لأوروبا .

ها أنذا .. أقف أمام أوروبا عارياً. هم يكسوننى، يعلموننى نطقى، وطعامى، وشرابى، وليس أمامي من سبيل ! قال لى صديقي، وهو يمتدحنى :

- فى الحقيقة، أنت واحد من القلائل الذين يشعرون بنبض الحياة الثقافية فى أوروبا ..

أبتسم أنا . ولم يدرى هو أنه لمس جرحى العميق .

* * *

من الممتع جداً، أن يتصور المثقف نفسه، ضد الحكومة .

متعة مركبة معقدة، ولكن ممارستها تثير عندى نوعاً من الشجن.

«رامبو» شيطان الشعر، قال قبل أن يودع بلاده فرنساً، ويودع عالم الفن والشعر قاصداً إلى الحبشة، لكي يحترف الحياة والتجارة. قال في كلمات غريبة كأنها خارجة من جوف الجحيم، قال يسب نفسه، ويسب شعبه الفرنسي العظيم :

- من المؤكد أنني كنت دائماً أنتمي إلى عرق منحط لا يستطيع فهم الثورة . إن شعبي لن ينتفض إلا لينهب، مثل الذئاب تنقض على الفريسة التي لم تقتلها .

الإحساس بالمسئولية الاجتماعية يقطع في المثقف مثل حد السيف. يقصد دائماً.. ودائماً لا يدرك مقصده. ينزف دماً، ويقال له :

- سيدي . الطريق إلى جهنم محفوف بالنوايا الطيبة .

هل سمعت الأصدقاء وهم يرددون كلمات :

النضال، الكفاح، التغيير، المواقف، القضايا ..؟!

هل سمعت الصوت .. وما وراء الصوت ؟.

أسمعه - أنا - وأعرف معنى : النزيف !!

أيوب ... أخي

أيوب ... أخي، وأنا أعرف عذابه، كان رجلاً صالحاً.

مستقيماً، يتقي الله، ويحيد عن الشر، كان عنده خير كثير .

أراد الشيطان أن يحطمه

وأراد الله أن يمتحنه .

زالت عنه، كل الخيرات، والثروات والنعم، وأصيب بقرح ردىء

من باطن قدمه حتى هامته .

* * *

أيوب أخي، وأنا أعرف عذابه .
أصدقاؤه لم يكلموه ...
لأنهم رأوا أن كآبته كانت عظيمة .
وعندما تكلموا قالوا :
الله يجرح، ويعصب . قالوا،
أيامنا على الأرض ظل.
أما الشيطان فأخذ يردد:
أيوب كان يتقى الله ،
لأنه كان فى نعمة .
فى الحقيقة ،
كان أيوب مولوداً للمشقة .
كما أن الجوارح لارتفاع الجناح .

* * *

أيوب أخي، وأنا أعرف عذابه .
قال أيوب :
كلامكم ... كلام فارغ .
كلكم .. معزون متعبون .
أنا ورقة مندفعة .
أنا قش يابس .
أذهب شرقا، فليس هو .. غرباً فلا أشعر به .

شمالاً حيث أعماله، فلا أنظره .
افتح عينى .. فلا آكون .
القمر لا يضىء .
الكو اكب غير نقية .
ترجيت الخير . فجاء الشر .
انتظرت النور فجاء الظلام ،
ليت كلماتى الآن تكتب .
ياليتها رسمت فى سفر .
ونقشت الى الأبد بقلم .
حديد، ورصاص .
(صحيح أنكم شعب، ومعكم تموت الحكمة.

* * *

أخى، وأنا أعرف عذابة .
دافع أيوب، حتى الموت .
عن عذابه .
أيوب لم يغتصب البيت ولكنه بناه .
أيوب لم يأكل كل طعامه .
لذلك دام له الخير .. وتضاعف .
« .... ونجوت - أنا وحدى - لكى : أخبرك ».
«عن ســــفــــر أيوب»
الأصحاح من : ١ إلى ٤٢

* * *

ولد التليفزيون - عملاقا، وكان المكتب الذى دخلته عملاقا كذلك. الرجل كان وراء المكتب عملاقا هو الآخر . كل شيء عملاق .. ماعدا أنا .

فى الصباح الباكر، والمكاتب والطرقات مازالت نظيفة، ذهبت إلى الموعد الذى أحسنت تدبيره، كنت أريد أن أسأل الكاتب الكبير، الذى يشغل المنصب الكبير : كيف يعيش ؟

قلت له، وشمس الصباح تنعكس على زجاج مكتبه الخالى :

- أريد أن أعرف، أليس هناك تناقض بين الأخلاق والسياسة!

ضحك، ضحكه عالية لا أنساها، وأذكر أنه نظر إلى وكأننى عقلة الصباع، وقال : الأخلاق علم ترتيب وتصنيف القيم، والسياسة.. السياسة، هى الأخرى، علم، وليست ممارسات وقتية زائلة !

ثم قال ان الخبرة بالحياة كفيلة بأن تحل لى هذه المشكلة، وأعاد ضحكته الكبيرة، وهو يتحرك فى كرسى مكتبه الكبير الدوار .

* * *

كنت مفلساً، متعباً، أشعر بأننى لا شيء، وعندما قابلت صديقى على محطة القطار قلت : من حقى أن أشكو له، وأن أقول، أى كلام غير محسوب أعبر به عن ضيق نفسى - قلت : - هل تعرف أننى اكتشفت فى الأسابيع الأخيرة « ان اللى ممعاهوش قرش مايسويش قرش وأن الفلوس أهم حاجة » .

قطع شكواى، وضحك ضحكة كبيرة، قال، وهو يضع يده على كتفى لا يمكن أن يكون هناك شخص مثلى فى حاجة إلى أن

يكتشف هذه البديهيات، وأننى حقاً مضحك .

ارتبكت . وعاد هو يضحك .

* * *

... وافترقنا .

بدأت أشعرأنها قد ضاقت بالحياة معى، وأنها تريد أن تنسحب من الفقر، ومن الكلام المكرر، الذى لا يقيم بيتاً ولا يحقق أياً من مطامحها .

كنا فى السرير وكانت يداها باردتين وكان علينا أن نترك الشقة لأصحابها بعد أقل من ساعة . قالت : - ياحبيبى، هل تعرف أن ملابسك الداخلية قذرة ... وأن لها رائحة .

فى الشقق الصغيرة .

كانت النساء يقمن .

ويضجعن ويتحدثن .

عن بضائع « غزة ».

فى الصالات .. فى الردهات .

كان الرجال يتكلمون .

يدخنون

يبصقون

يتضرعون

ينافقون

يتحدثون عن أسعار العملة .

في مداخل القرى
كان الجنود العائدون من حرب اليمن . يبنون بيوتاً من الطوب الأحمر .

* *

يا شجر الصفصاف
تقتلني مرة أو مرتين
« أنا مخدوع ومتخلف، والأسوأ .. **أننى أعرف ذلك** ».

أسال نفسى فى فتور : متى تبدأ النهاية ؟ متى بدأت ؟
أتطلع – دون قصد – إلى جريدة مفتوحة فى يد شاب يجلس إلى جوارى، على دكة، فى حديقة جرداء، مليئة بالأوراق والبقايا .
تختلط فى عينى العناوين بأنهر الكلمات ببقع الصور، فأرى صفحة الجريدة، كلها غائمة كابية اللون .
مهنتى الصحافة، ولكننى عاطل .
لا أسأل عن أحد، ولا أحد يسأل عنى ..

ألقاك فى عصف الذهول المـر ..
تجتاز الفجاج السود ، مخبولاً شقياً ..
ما الذى سدد فى قلبك سكيناً ..
وبعينيك سؤال أخرس الدمعة
وحزناً أبديـا ..

«فـاروق شـوشـة»

خيـــول الفـــجـــر !!

صرت صحفياً بلا عمل، فقد صدر قرار بإبعادى عن المجلة التى أعمل بها ، لسبب لا أدريه.

كنت قد أُبعدت قبل ذلك مرة، لأننى اتهمت بأننى عضو فى مؤامرة لم أسمع عنها.

نزعت التجربة الأولى، الأمان من روحى. جعلت الكتابة الأسبوعية فى المجلة بلا أهمية، وبلا ضرورة، جعلتنى أشعر أننى خادم لا أهمية له، يبقيه (السيد) فى المنزل، حتى لا يجوع أو حتى لا يسبب مشاكل!

أما إذا غضب «السيد» يوماً، أو تكدر مزاجه، أما إذا صدرت عنى أصوات مزعجة - حتى وان كانت فى حجرات الدار الخلفية، فيكفى أن يشار الى بأصبع واحدة ، فاختفى .. وأصبح دخاناً.

كانت أياماً طويلة مملة. غرقت فيها وحدى فى لا جدوى الحياة، وأيقنت أن حرفة الصحافة أو الكتابة، حرفة ناقصة فى بلادنا ، وفى عصرنا ، وهى حرفة فى حاجة إلى قوة - قوة من نوع خاص- تساندها وتدعمها.

كنت أحلم فى بداية عملى فى الصحافة بأن تذوب رغباتى

الأدبية والفنية وأحلامى الاجتماعية، فى تلك القنوات الواسعة الانتشار التى تشكلها الصحافة. حاولت دائماً، أن أقنع نفسى، بأنه لا معنى للأديب أو الفنان الذى يكتب لكى يقرأ له الأصدقاء .. أو ليوزع – من كتاب طبعه على حسابه – مائة نسخة.

كنت أرى أن التنازلات التى تتطلبها منى الكتابة فى الصحافة، هى فى النهاية تنازلات ضرورية، حتى يمكن أن أنشر ما أكتبه فى مجلة أو جريدة واسعة الانتشار.

وكنت أقول لنفسى : الوضوح والبساطة لا يمكن أن يكونا عيباً.

لم أكن أرى المنزلق، ولا الفخ المنصوب.

الإحساس الأساسى الذى يحفظ للكاتب كرامته ، هو إحساسه بالأهمية إحساسه بالحرية، بأنه يكتب كلمات تخرج منه بلا حساب، ولا محاسب سوى فنه وقدرته وموهبته.

أما أن يكتب داخل قالب، أن يكتب دون أن يتعدى حدوداً، أو قيوداً أو أسواراً موضوعة حوله، فإنه يتحول – بالتأكيد – إلى شئ آخر غير «الكاتب».

الأجر الوحيد الذى يحصل عليه الكاتب هو أن يفرح ، وهو يرى كلماته وقد تحولت إلى مخلوقات على الورق، وكثيراً ما رأيت كلماتى تتحول إلى مخلوقات مشوهة، تسقط كأجنة ناقصة النمو.

يقول زكى مبارك «لا أحب أن يسبقنى أحد فى حب الوطن»، «لا أحد يحب وطنه كما أحبه أنا».

لا أستطيع أن أفهم كيف يتحول «حب الوطن أو الدفاع عنه» إلى سيف مسلط على رقاب العباد.

تجربتى البسيطة مع الإبعاد عن الصحافة، والمنع من الكتابة، لم تفقدنى الأمان فقط . أو ثقتى فى مهنة الصحافة أو الكتابة ، ولكنها كشفت لى عن معنى يتراكم فى واقع حياتنا ، ونحاول دائماً أن نتجاهله وهو : أن المعنى الحقيقى لكلمة «مواطن» مازال مفقوداً .. وما زلنا نبحث عنه ..

كم ليلة أمضيتها، وأنا أشعر أننى بلا وطن.

كم ليلة أحسست فيها ، بالرغم من بيتى وزوجتى وعيالى – أننى لست ضرورياً، وأننى مطرود، وزائد عن الحاجة.

«ألقـــاك فى عـــصـف الذهول المر.
تجتاز الفجاج السود، مخبولاً شقياً.
مـــا الذى ســـدد فى قلبك سكيناً
وبعـــينيك ســـؤال أخـــرس الدمـــعـــة
وحزناً أبدياً.

«فاروق شوشة»

أدمنت فى ذلك الوقت الجلوس فى حديقة، كانت يوماً ما حديقة، وتحولت أرضاً جرداء مليئة بالبقايا، والنفايات . وكان السؤال الذى أكرره على نفسى متى تبدأ النهاية ؟ متى بدأت؟.

كنت أبحث عن الإجابة فى وجوه الناس، فى ملابسهم، فى

تعاملهم، وفى زحامهم غير الإنسانى، وفى تدافعهم بالاكتاف بلا منطق، فى صعودهم وهبوطهم.

كنت أقول لنفسى أن الوطن : هو مجموعة مستقرة من القيم.

إلا أننى كنت ... كفيفاً هائجا .. يتخبط فى الظلام.

* * *

هناك نوعان من المؤامرة. المؤامرة التى تختص بها النيابة، ويتولاها المحققون. ويكون القصد الجنائى فيها واضحاً ومحدداً ومواد الدستور والقانون يجعلان منها جريمة مؤكدة.

ومؤامرة من نوع آخر، هى المؤامرة العامة التى نشترك فيها جميعاً . المؤامرة التى يقدم عليها كل الرجال ، لكى يصعدوا ، أو يصلوا .. أو يحققوا أهدافاً، يعتبرونها مشروعة : مثل النجاح. أو الانتصار فى معركة الحياة .

تلك المؤامرة التى نحيكها جميعاً، كل صباح، ونحن نتناول الإفطار، والشاى باللبن، المؤامرة السرية العادية التى نواجه بها الرؤساء فى العمل والزوجات فى الفراش، المؤامرة اليومية السريعة، التى نواجه بها الأصدقاء وهم يسقطون فى الطريق، والزملاء، ونحن ندوس على أعناقهم فى الطريق إلى مزيد و مزيد من النجاح أو مزيد من النقود من الجحيم .. أو الوهم الفارغ.

أعترف أننى طرف فى هذه المؤامرة .. لقد فرضت على. وجدت نفسى منساقاً إليها، ولا أستطيع - بالضبط - تحديد وقت

تورطى.

أخذت أشعر أنها تصبح شيئا فشيئاً لحمة الحياة وسداها خيوطها، ولحظاتها، مخاوفها، وتحقيقاتها الكريهة أخذت تلفنى وكأنها شرنقة: منذ أن كف العمل عن أن يصبح - بالنسبة لى - عطاء حقيقياً منذ أن كف الوجود، عن أن يكون - بالنسبة لى فرحاً ونعمة

عدت أعرف أن لعن الظلم .

لايجدى

مديح العدل لايجدى .

وخلع الشوك لايكفى.

وقول الشعر محض خيانة !

* * *

يفاجئنى أحياناً، صباح حزين، ويظل الحزن يصاحبنى حتى الظهيرة ثم يتراكم - شديدا - فى تلك اللحظات الكئيبة ، التى تفصل نهارى عن الليل. حينئذ لاتستطيع حتى الزهور، أو مضاحكات طفلى - أن تعيدنى إلى حقائق حياتى البسيطه. أمشى فى تلك اللحظات حتى أصل إلى شارع جانبى فى حى الدقى . كان الشارع ينتهى فيما مضى إلى حقول، وكانت به بيوت كبيرة متباعدة .

كان لى صديق يسكن هناك، من البلاد العربية، سياسى،

وفنان، سمعت عنده الشعر والموسيقى، وعرفت الصداقة، والنساء، وجلست حتى الفجر فى الشرفة التى تطل على الحقول، كان يحكى لى عن البدو فى بلاده ، وعن الصحراء ، ويتكلم عن الكفاح وعن قدرات البشر البسيطة .

فى الشقة المفروشة ، التى لاتشغلها زوجة ولا أولاد ، كان هناك دائماً شىء يصنع : قصة تكتب ، شاعر يتعثر فى أبيات قصيدته، طلبة من الجامعة يناقشون قضاياهم . أخبار البلد الحقيقية تروى هنا دون تردد أو خوف . دوائر إنسانية صغيرة ، داخل دائرة كبرى أشد إنسانية وحيوية علاقات حميمة، مطالب قليلة، مستقبل يدعونا بلا تردد، وخيبة الأمل أمر غير وارد ولا معنى له .

أعود إلى الشارع الجانبى ، وقد جرنى الحزن إلى هناك ، كما يعود المجرم إلى مكان جريمته .

أزدحم الشارع بالعمارات الرفيعة السيئة اللون والبناء ، المقهى الذى كنت انتظر فيه ، أصبح قذراً، مقاعده قديمة مكسرة ، وعلى مدخل المقهى «فترينة سندويتشات» تتصاعد منها رائحة زيت قذر وطعام ردىء .

أما صديقى فقد رحل .. أخذ شقته شاب أعرفه . عالى الصوت. فارغ لزج . أدق الباب ، تفتح لى خادمة بغى. يخرج لى هو بملابسه الداخليه، يلح على فى البقاء تصنع لى الخادمة شاياً رديئاً . تتمايل فى بذاءه وهى تستأذن فى

النزول لكى تشترى أشياء قبل أن يغلق السوق . يحيطنى تراب، وكذب وعطر ردىء. يتحدث فى السياسة بصوت مدع. يرثى لحالى . يحاول أن يوهمنى بأنه قادر على أن يأتى لى بأعمال أزيد بها دخلى . ينظر بين الحين والآخر إلى وجهه فى مرآة قديمة أمامه . نتبادل العناوين والتليفونات ومواعيد لن تحدث. أغادره . وقد تحول حزنى إلى شعور ثقيل بالهم والقذارة. متى تبدأ النهاية ؟ متى بدأت؟.

على الباب يوقفنى البواب العجوز. كم تغير وجهه . ولكنه يذكرنى.

أنت تذكرنى حقاً! تذكر ما كان، وكيف كان؟! هل تستطيع أن تحكى لى ونحن وقوف فى مدخل العمارة القذر، كيف حدث كل هذا.

. اسمعه وهو يسأل ويجيب . يتحدث حديثاً غير مترابط ، يروى احداثاً جساماً :

«المرأة اليونانية التى كانت تسكن فى الدور الأعلى ، أصابها مرض السير نوماً وسقطت من النافذة .

اربع من الغرف التحتية تحولت إلى بيوت للبغاء يرتادها سائقو عربات « البيجو » العاملون على خط ليبيا .

بائع الفول ـ الذى كان على الناصية . مات منه ولدان . هدم العشة وعاد هو وزوجته إلى الصعيد .

لم يعد هناك من أخدمه أو ما أحرسه .»

« علينا ان نبكى من أجل كل شىء .

ولكن . ليكون بكاؤنا .. جيدا .

نبكى من الأنف . ومن الركب .

نبكى من خلال السرة .. ومن الفم .»

* * *

أصبحت أدخل إلى بيتى . وأخرج منه دون أن يشعر بى أحد تتتابنى نوبات نشاط فارغ . وتمر بى أيام أتمنى فيها أن أغلق نوافذى فلا يرانى أحد .

تمنيت فى تلك الأيام أن تكون لى حرفة أخرى ... سمكرى أو سباك . أن أحمل حقيبة حديدية على ظهرى وأصلح «بابور جاز» ولكن كلها كانت أشياء قديمة مفككة كتلك الأفكار التى تملأ رأسى : مسامير . صواميل . وقطع من الخرق القديمة الممزقة .

القرد الذى يقضى نهاره قلقاً ، يقفز على أسلاك قفصه لايعرق، ولا ـ تتساقط فوق جبهته الشقية بلورات العرق . الحصان الحر الذى يجرى ويطير فى الصحراء . أو يعمل فى حقل ، تملأ جسده حبات العرق ويرفع رقبته ورأسه عالياً، يطلب مزيداً من الحرية ومن الهواء..

شقيت بفراغى. فقاعة هواء تزحف. تتغير فوقها ألوان الطيف. «المشى فى غرف بيتى الخالى .. غامض» .. «بيتى يتحول إلى . كهف النوم الكثير .. قد يسبب لى صداعاً » .. «كل شئ يحدث

فى داخلى. أما وجهى فكما هو».

لا أحد يستطيع أن يلاحظ، كم أنا وحيد، ومعزول، ومبعد أتساقط أمام التليفزيون .

عملاق .. بليد . مسلوب الإرادة.
البيت لا ينقصه طعام.
الدنيا تتحول حولى إلى معدة
مصران ضخم
لن يصرخ ، حتى يجوع
أين الأرز. الملح . الصابون
الكبريت . العدس
التليفزيون عملاق
وأنا عملاق ....

«رجل كبير. فقد السيطرة على جسده» غادرت بيتى فجأة أصبحت أحب الشوارع أكثر من البيوت. الحانات والمقاهى . أكثر من الغرف.

قالت زوجتى : هل يخرج عاقل الآن؟!

كانت شوارع القاهرة خالية. خيول مسكينة تجر عربات الخضار، الأجراس فى رقابها خافتةرتيبة. الرجال إلى جوار العربات يجرون أقدامهم على أسفلت الطريق فى مدخل المدينة.

وطلع فجر جديد. من وراء محطة القطار. فجر يحمل غباراً جديداً، وضوضاء جديدة.

آه .. لا تسألوني جواباً
أنا لم أكن شاهداً أبداً
إنني قاتل أو مقتول
مت عشرين موتةً
وأهلكت عشرين عمراً
وآخيت روح الفصول.

زهرة صفراء للسيد المسيح

مات عبد الناصر وأنا أعيش فى قرية صغيرة على شاطئ الدانوب.

قرية فى ريف المجر الاشتراكى، أقمت فى القرية شهراً، على نفقة الدولة فى

بيت من بيوت الكتاب والفنانين، لكى اشتغل بالترجمة.

ليس فى القرية كلها من أكلمه، سوى مدير البيت العجوز، الذى يعرف. خمس أو ست كلمات انجليزية، تمكننا - أنا وهو - من تبادل تحية الصباح والمساء، وكلمات المجاملة البسيطة .

ذات صباح، دق الرجل العجوز الطبيب باب غرفتى مبكراً عن المعتاد. دفع فى وجهى بجريدة إقليمية صغيرة تصدر بالانجليزية فى مدينة بعيدة وقال : ـ ناصر ... كابوت ...... : كابوت ... كلمة مجرية تعنى : انتهى أو مات .

« ناصر ... كابوت » .. ظل يرددها وهو يضع أصبعه على صورة صغيرة بالصفحة الأولى : صورة نعش عبد الناصر . غارقاً فى بحار من الناس . وتحت الصورة خبر صغير بالبنط الأسود .

عندما بدأت أدرك . وأفهم . كان الرجل قد ترك الجريدة على المنضدة .

واندفع خارجاً فى عصبية وتوتر. وبقيت وحدى !

ملأ الخبر غرفتى الواسعة ، التى تطل على حدائق رائعة ،

وحقول خضراء فسيحة . فتحت نوافذى . وارتديت ملابسى . وعندما أدركت أن ليس هناك ما أفعله . سوى أن أعيد قراءة الخبر . وأن أحدق فى الصورة .

جلست فى مقعدى أمام النافذة .

ليس فى الصورة سوى نعش. ووجوه صغيرة تحيط به. وعلم.

لا أتذكر حرقة الدمع . بقدر ما أتذكر إحساسى بأن حبالاً قوية كانت تربطنى بالشاطىء قد قطعتِ .

درت فى شوارع القرية . وجلست فى الصباح بمقهاها الخالى . فى يدى الجريدة مطوية . أعيد فردها . وأعاود التحديق فى وجوه الرجال الذين يحملون الصندوق المغطى بالعلم . أعيد قراءة الخبر الذى لايقدم ولا يؤخر. يدخل المقهى رجال ونساء . يشربون كأساً أو قدحا من القهوة ، ويخرجون . وأنا وحدى أسأل : كيف يذهب عبد الناصر الآن .. ولماذا ؟ وأنا وحدى هنا ... بعيداً ، بعيداً عن كل شيء . وماذا بعد . تصورت هول المفاجأة ، لم تكن ليالى حرب يونيو، ولا النكسة المظلمة بعيدة ، انها جرح مقروح، وهذا الموت المفاجىء يضرب فى قلب الجرح . .

هل علينا دائما أن نحمل هذا، السواد، والعذاب، والألم، حتى هنا .. على شاطىء الدانوب. فى قلب حقول العنب، والشمس والغجر السعداء . الرواية التي أعمل في ترجمتها عنوانها «كن وفياً حتى الموت » . و هي آ ية من الإنجيل . البطل في الروايه طفل فقير من براري المجر . يكافح لكي يتعلم ، و ينفق على نفسه ، فيشتغل قاريء كتب ، عند عجوز ضرير . العجوز يعطيه ملاليم ، ويتهمه

دائماً بالسرقة ، و الطفل ، يكد ويكدح . لكي يكسب ملاليمه ، ولكي يثبت للعالم براعته .

لم يستطع كل ما فى هذه القرية الصغيرة من جمال أن يبدد قلقي . أحلام الفتى الصغير في الرواية التي أترجمها ، بأن يعيش، وأن يثبت للعالم براعته . كل هذه الأحلام تحطمت . ولم يعد كافياً لكى يقنعني بالبقاء هنا . أو بالعمل : لا شمس هذه القرية . ولا حقول العنب . ولا التلال الخضراء .

أصبحت كائناً غريباً .. قلقاً مفتت الأحلام .

كنت وحيداً .. وزاد موت عبد الناصر من وحدتي !

آه ...لا تسألوني جوابا .

أنا لم أكن شاهداً أبداً .

إنني قاتل أو قتيل .

مت عشرين موتةً .

وأهلكت عشرين عمراً .

وآخيت روح الفصول .

* * *

«مازلت ساذجاً . ومتخلفاً فيما يتعلق بقلبي » . مازال الحب بالنسبة لي ضربة في المجهول . أدخل فى الحب .. بحثاً عن حقيقة نفسي .

النساء اللاتي عرفتهن في مصر ، كن يعقدن اتفاقات سريعة سرية أو معلنة . تقضي على الحب ، وتحوله إلى عبء أو صراع ،

«أريكا » هناك في المجر ، كانت تقودني إلى بحار بعيدة . نلتقي عند أفقها الغامض . تدفع في جسدي تدفقاً حراً . يلغي حدود الجسد وخطوطه الخارجيه . تحولني إلى « نبـي» يحلم بحياة في قارب صيد يدعو إلى دين جديد . تصنع قصائد ، من اللقاء السريع على محطات الترام . تتحول الأشـيـاء معها، والأقـلام ، والأوراق ، والبيوت والأشـجار، والأكواب، إلى كائنـات صغيرة تشاركنا الميلاد المتجدد.

لكنها كانت متزوجة ، لها ابن تحبه وزوج عزيز تشفق عليه . كان عندها من الشعر ، والنشاط ، والوقت ، مايكفينا جميعاً . وجودي معها ، دوامة سعيده .. ، يردد قلبي اسمها ، ألمسها وهي غائبه، وأشم رائحتها ، وهي إلى جواري ، فتعيدني إلى حقول القصب في الصعيد .

لها وجود عنيف ولدن ، ممتلئ بالحيويه والشعر ، قادر مثل الحدائق بالليل على أن يجعل منك كائناً جديداً .

كانت «أريكا» تصنع في براعة مخاطر اللقاء، ثم تزيلها . تحول لقاؤنا إلى واحة كأن ليس غيري و غيرها في الوجود .

كانت شئ مختلف . شئ خاص وحقيقي اكتشفته أنا . ومن خلاله أرى الدنيا ، والناس ، والشجر ، أري « الدانوب» وقصائد المجر القديمه .. ، أسمع موسيقى «بارتوك» . واقرأ روايات «شاركادي». نلتقي في أغلى الفنادق ، ،ننام على مناضد أرخص الحانات ، نتوه في حواري المدن الصغيرة ، ونستلقي إعياء في حقل على طريق زراعي .

«حبي ينتمي إلى هذه الأرض ، وهذه السماء .
يعبر الحدود كأنه طائر أو عشب .
ريح أو صوت .
شمس حبي تشرق على أبراج المدنية .
المبنية على القمة .
مصدر الدمع : عيونه .
تتساقط في النهر الجبلي المتعرج .
نظرته تجعلنى حبلى .
جسدي لجسده.. الخلاص .
آه .... ياموتي ....
فلينقذنا ....الصمت .... والضوء الأبدي . »

كان لابد لكي أراها ، أن أعود إلى العاصمة «بودابست» أنا في حاجة إلى من أكلمه ، لا أستطيع البقاء في القرية ولا في بيت الفنانين . حيث أتناول الوجبات المنتظمة، وأترجم الصفحات التي لا معنى لها .

لم يكن عبد الناصر الذي مات رئيساً . ولكنه كان شيئاً في نسيج الحياة .

وبعد وقت قليل من وصولي إلى «بودابست» إستطعت أن أدبر اللقاء. سنقضي عطلة الأسبوع في ضاحية قريبة . هناك لنا صديق مشترك ، يعرف زوجها ولكنه يقدر «حبنا» . وعدتني أن نظل معاً هناك ليلة السبت وطوال الأحد . قالت إنها لاتستطيع ان تلقاني الان . ولكنها تفهم ما أنا فيه . سنلتقي في محطة القطار

صباح السبت . كل شئ يمكن تدبيره . ما علي إلا أن أحاول المشي قليلاً وبعد ذلك أذهب فوراً لكي أنام . هي ستدبر كل شئ . ستكون هناك في الصباح ، لا، لاتخاف . لن تحدث مشاكل هناك بالتأكيد .

«بودابست» قسمان : «بودا» القديمة و «بست» الجديدة.

درت فى تلك الليلة فى القسمين، ركبت الترام، جلست على الدانوب . حدقت ذاهلاً فى رواد حانات محطات القطار.

لم أنم...

ستعيدنى «أريكا» إلى صوابى . كل الجرائد الانجليزية الموجودة قرأتها إنهم لا يقولون شيئاً . هم يشعرون، حاولت أن أسمع على التليفون صوت بعض الأصدقاء المصريين والعرب المقيمين فى المدينة ... ولكنها - كلها- كانت ناقصة أو غريبة.

لن يفهم ما حدث سوى أنا و«أريكا» التى لم تر مصر. ولم تعرف عبد الناصر، هى وحدها القادرة على أن تفهم ما حدث، ففيه من الخيال، والحلم، والكابوس، أكثر مما فيه من الحقيقة.

يقدمون هناك فى المطاعم الصغيرة ، التى تظل ساهرة طوال الليل، طبقاً من حساء السمك الأحمر الملئ بالشطه.. جلست أتناوله فى بطء . أفكر فى مصر وأنتظر «أريكا»، وانتظر أن ينتهى ذلك الليل الطويل، الذى تحول إلى دهليز . لا تبدده أوتار عازف الكمان الفقير، المضنى وكأنه نواح أرغول.

استحضر صور عائلتى ، أصدقائى، أهلى، الزملاء، استحضر كل ما يمكن أن يقال من كلمات. ويدور فى ذهنى السيناريو

الساذج. الملئ بالشعارات التى نرددها.

كنت فى ذلك الليل أبحث وحدى، غريباً بلا صديق، عن حقيقة، عن شئ مؤكد واحد أقوله، أضعه أمامى هنا على المنضدة. أكتبه فى خطاب أرسله إلى مصر، أو سطور على ورق. لكن . كل ما حولى كان انصاف حقائق.. أنصاف كلمات .. تفر من أمامى. وتتساقط .. تعيدنى إلى الوحدة والانتظار

أنا ، بلا جوهر
صلتى بالأشياء
هى مبرر وجودى
إذا صرت وحدى
أفزع . وأخاف!

مرت ساعات الصباح ثقيلة، وحانت ساعة اللقاء. دبت فى روحى حيوية ونشاط جديدان، وأنا أدخل إلى المحطة الفرعية التى تقع على شاطئ الدانوب.

سيحملنا القطار. من هنا. إلى «سانت اندرا» ، مدينة كأنها حلم مدينة تحملها فى راحة كفك. وتقبل أحجارها. وشوارعها، بعد قليل سوف أراها من جديد مع ... «أريكا».

ولكنها لم تأت.

فى الموعد تماماً بعد دقائق من الانتظار اللذيذ. جاءت «لورا» صديقتها ، قالت فى لهفة وارتباك:

- لم يكن من الممكن أن تأتى - كل الأمور ارتبكت. صدقنى. كل الأمور ارتبكت ، سأحكى لك. «أريكا» حاولت كل شئ .. يجب

أن تبقى معهم اليوم . هى أرسلتنى لكى أكون معك، أرجوك .. حاول أن تفهم

كانت منفعلة جداً، وصادقة، وعذبة – ابتسمت فى طمأنينة وقالت : «تقدم لن تندم على عطلة الاسبوع هذه... هل معك التذاكر. معى بعض الطعام.

فى القطار تولت هى الحديث . كنت أشعر بما تبذله لكى تبدد المفاجأة. لكى تعيدنى إلى صوابى. لم تتوقف عن الحديث، قالت إنها عرفت بالموعد فى المساء المتأخر، «أريكا» قالت لها كل شئ. قالت : «إننا لن نستطيع أن نكون معاً كما أرادت. وقالت لها أنها لا تريدنى أن أمضى عطلة الأسبوع وحيداً ..»

سمعت لها، وحدقت فى وجهها الصادق، الودود، وتأكد لى أننى سئ اللحظ.

كم تتحول وتتبدل كل الأشياء. عندما تكون مع انسان «آخر» النهر، والشجر. والقباب،والكنائس، والضوء، والصوت، والنغم. أليس لهم جميعاً، وجود آخر مع الحبيب؟

* * *

كل الأشياء تمر. الوقت يمر. عطلة نهاية الأسبوع تمر. مررنا على كل الأماكن، زرنا كل الأصدقاء. حاولنا أن نذكر «أريكا» وأن ننساها، حاولت «لورا» أن تتكلم عن مصر، بقدر ما تعرف، وعن موت عبد الناصر بقدر ما تشعر. حاولت أنا أن أقول لها ما

أستطيع ولكننا كنا نعود. دائماً نحاول أن نذكر «أريكا» أو أن ننساها.

قالت «لورا» وهى توقفنى . أمام تمثال خشبى للسيد المسيح .. صنعه فلاحو القرية من خشب ومعادن ووضعوه على مدخل بلدتهم.

– انت ... ألا تعرف أنها سيدة متزوجة .. أعرف أنك تحبها .. وهى – بالتأكيد – تحبك. ضع الآن من أجلها زهرة صفراء تحت تمثال السيد المسيح. حاول أن تنساها ... هى الأخرى قد تستطيع أن تنساك.

نفذت هذا الطقس بحذافيره. اخترت زهرة صفراء ووضعتها تحت تمثال السيد المسيح من أجلها .. لكى أنساها وتنسانى.

* * *

.. بعد كل هذا ، رجعت إلى بلادى.

لم تمض شهور . حتى كنت أبحث عن عقد عمل فى البلاد العربية.

حصلت على العقد . وعندما قاموا بالكشف الطبى الضرورى كتبوا على أوراقى أننى صالح للعمل فى جميع الأجواء .. وسافرت.

رأيت مصـــر فى المنـــام ..
لشـــــد مـــا تـغيـــرت
وهـــا أنـــا أرحـــل عنـــك
عـــائـــداً يـــومـــاً إليـــك

حريتى والقروش القليلة

كان جو الميناء «الخليجى» الحار الرطب، الذى نزلت للعمل فيه، صفعة على وجهى.

الهواء فى الشارع المفتوح ثقيل وكثيف، له رائحة فى الأنف وطعم فى آخر الحلق، هل هى الرطوبة؟ أم رائحة البترول. أم هى رائحة عرقى - أنا - الذى يلتصق لزجاً بكل الجسد. قرص الشمس المخنوق بالغبار، لم يجعلنى أصدق أننى فى مكان واقعى. كنت وكأننى خرجت إلى حافة العالم ، أو إلى أول الجحيم.

أين . يا دنيا نسيم العصر فى مصر.

أين نهر النيل!

عندما سلمت نفسى للموظف الإدارى المسئول. فى المؤسسة الصحفية التى سأعمل بها. قال مرحباً فى لهجة شامية ممطوطة..

«أهلاً وسهلاً» وأشار إلىّ لكى أجلس على كرسى مجاور لمكتبه .. وانصرف !.

من ذلك الركن. أرى الحجرة الواسعة كلها. وترانى. جلست هناك أنتظر المصير، الحجرة مليئة بالمكاتب الخالية. تناثرت عليها أوراق

قليلة. لقد أخذ المسئول كل أوراقى معه، حتى جواز السفر، وتركنى وحدى لفترة، طويلة . راجعت نفسى. وسبب مجيئى إلى هنا - راجعت حياتى بسرعة وخوف وكأننى أقلب فى دفترى.. كتاجر ينتظر إشهار إفلاسه.

كوابيس الأمراض النفسية.. التى قرأت وصفها فى كتب التحليل النفسى، حيث تتحول عيون «الآخر» إلى جحيم، حيث يتصور المريض، وكأن كل الهمسات موجهة إليه، وكل الضحكات تقصده، لم تعد كوابيس، بل تحولت إلى واقع أعيشه. أطياف الموظفين تدخل وتخرج. تنشغل بتقليب الأوراق المتناثره على المكاتب، كلها ترمقنى بطرف خفى.

- انت المحرر الصحفى القادم من مصر ؟!

نعم «أنا المحرر الصحفى القادم من مصر»، تحرك ساعى المكتب، أمامى فى خُطى سريعة، وأنا أتبعه، حتى وصلنا إلى غرفة «رئيس التحرير».

فتح الباب، تركنى أدخل.

لم أكن أعرف الرجل من قبل، ولم يكن يعرفنى، كنت قادماً، كواحد من عمال التراحيل العظماء . الذين يخرجون من مصر، بحثاً عن لقمة العيش وقد كتب الطبيب على أوراق الكشف الطبى الخاصة بى، أننى (صالح للعمل فى جميع الأجواء) .. هذه الجملة،

صيغة رسمية يكتبها الأطباء، هى تعنى أننى لا أعانى أمراضاً معدية أو خطيرة، قد تسبب مشاكل، أو تكاليف غير ضرورية للمؤسسة التى سأعمل بها، ولكن الجملة، ظلت لاصقة بعقلى، وإحساسى، وأنا اسمع لرئيس التحرير، وهو يشرح لى ما هو العمل الذى ينتظرنى.
كان مؤدباً فى مكر. رقيقاً فى افتعال. كأنه يقول لي ، رغم كل الصياغات والاكلشيهات، المؤدبة، إنه يعرف لماذا جئت؟وبكم جئت؟ ومادمت قد جئت.. فعلينا - الآن - أن نعيد ترتيب الحساب.

لم يكن هذا وهماً . فقد كان منظره يدل على ذلك، جواز سفرى أمامه بين يديه، يقلب فيه، ينظر إلى، يتكلم قليلاً ، ثم يتحدث فى التليفون ويهرش فى رأسه.

وأخيراً - سمح لي بالانصراف - لكي استريح - على وعد متفائل بلقاء قريب ... وتعاون - أن شاء الله - مثمر .

عندما دخلت إلى وحدتي ، في فترة الظهيرة العنيده ، كان صوت «الكونديشن» يدوي في الحجرة ، قلت أنا الآن في حجرتي الجديده .. لاشئ هنا أملكه . لا شئ هنا له تاريخ .

الآن .. استطيع أن أكتب مذكراتي .

الواقع فقط ، الوقائع ...

الوجوه والتصرفات . وتتابع الأحداث ، من تتابعها سوف أعرف ...

هل انا مجرد سطح أملس .

أم أن لي معنى وهدفاً ؟

هل يكفي أن أكون مجرد مشاهد ؟

هل للنمل . أو للنحل .... ذاكرة ؟

كل مافي قلوب المصريين من حضارة ومرونة - يتحول - هناك في البلاد الخليجية حيث النفط - إلى غلظة قاسية . الرغبة الحارقة المتعجلة فى المال تحول الإنسان إلى كائن آخر، لابد وأن يكون هناك دائماً -ملء إليد مبرر واضح وسريع، لهذه الغربة، وهذا الشقاء.

عندمات بدأت أتعود على جو العمل وإيقاعه الجديد، عرفت أن هناك قواعد مختلفة للعبة لا أتقنها، هناك ضرورة لأن تكون «موجوداً وظريفاً» حتى وإن لم يكن هناك مبرر لذلك. هناك كمية صغيرة جداً. ضئيلة جداً من العمل، لا يهم أن تؤدى، أو كيف تؤدى .. لكن المهم أن يحدث حولها ضوضاء كبيرة.

كانت - المؤسسة الصحفية - مليئة «بالأخوة المصريين»، هم هنا أصحاب الحرفة. وأصحاب الفهم، هم هنا حقاً «أولاد البلد» كان - أصدقهم توافقاً، وتعبيراً عن نفسه - شاب صغير، سريع الحركة، ضاحك دائماً، يعلن باستمرار ... أنه سعيد ... سعيد بما يكسب، وأنه لا يصدق ما يحدث له!

عندما قابلت «شكرى» الصحفى المعروف، الذى كنت أسمع عنه

فى القاهرة ، كان متعباً مكدود الوجه، قال وهو يلقى بنفسه على مقعد كبير فى غرفة خإلية صانعاً حولنا شبه خلوة، قال لى :

- ما الذى جاء بك ؟

قبل أن أفكر فى الرد . أحسست به يتفحصنى بعين زجاجية مليئة بالذكاء المردود ، والفهم المنهك ، أحسست أنه يقول : ماذا تريد ! هل جئت تتفرج علينا ، أم جئت تأخذ نصيبك لم أستطع أن أقدم رداً سريعاً فبدأت أسئلته المتلاحقة ، تأخذ اتجاهاً واضحاً ، إنه يريد أن يعرف بسرعة كيف جئت إلى هنا ؟ وما هى اتصالاتى ؟ وما هو حقا طموحى ؟ بعد لحظات قليلة اطمأن . فقد عرف أن ليست لى مخالب .. وأننى لا أهدده فى شئ .

وأخذت علاقتنا بعد ذلك صيغة الود المتباعد .. والتجنب المريح .

انتظر الفجر ، والفجر لايجيىء... !

الفجر ليس موعداً .

إنه ، عناد .. إصرار .

صوت متسرع ، نزق

يقول لى :

هذا .. أو الموت .

* * *

أشد مايؤلم ، هو أن تجد رجلاً كبيراً ، يضع نفسه فى غير موضعه ، من أجل المال .

كان «الأستاذ فريد » موظفاً إدارياً كبيراً فى وزارة الثقافة وجاء يعمل معنا هنا في وظيفة بسيطة ، من أجل تلك القصة المكررة المعادة جواز البنات ، ومصاريف الأولاد ، كان يروى قصته ، وكأنه يحكى مسلسلاً إذاعياً يتصنع فى صوته نبرة مأساوية ذليلة .. تقود إلى لاشىء ، كان مكتئباً دائماً فزعاً دائماً على القروش ، وكان الشبان الصغار ، كثيرا مايجعلون منه أضحوكة. لم يكن « الأستاذ فريد » بخيلاً ، أو هو بالتأكيد لم يكن يشتكى من كل هذه الأوجاع ، والأمراض .. لقد كان يصعد خامس دور... دون أن « ينهج » . أنها الرطوبة الملعونة. والبعد عن الوطن.

لست أدرى كيف أسرعت الأيام« بالأستاذ فريد» إلى نهايته .فمن قواعد اللعبة هنا كما يرددها العارفون ، أن لا تجعل تلهفك يبدو ظاهراً على البقاء ، أو على النقود ، ولأنه لم يكن قادراً على إخفاء ذلك ، أو على الأقل التظاهر بالانشغال بشيء سواه . فقد تساقط سريعاً .. ووقع له ما يعرف هناك باسم« التفنيش » أي .. إنهاء العقد. (من المستحيل أن نرى كل شيء يتحول حولنا ، بهذه السرعة، ولا نصاب بالجنون) .

صديقى الوحيد من المواطنين أهل البلد، هناك، كان اسمه على.

كان صديقى يمثل لى شيئاً جديداً. لقد كان حراً، تواقاً بشكل غير أنسانى إلى المعرفة. الحديث البسيط معه. يأخذ أبعادا حقيقية. وكأن الكلام يصدر لأول مرة. كان يعشق عبد الناصر بجنون. يحمل صورته فى محفظته، ويجمع خطبه القديمة، تقوده خطواته فى كل اتجاه، بحثاً عن حقيقة بدائية يحملها فى داخله. الصحف المصرية عنده، جنون. ومتابعة أخبار مصر : جنون. يتابعها فى لهفة. وإصرار ... وكأنه سيحصل غداً على الحقيقة كاملة.

ولكنه كان «ظريفاً» . قادراً على رؤية نفسه، وإدراك مدى تخلفه، ومدى الأفق الضيق الذى يتحرك فيه. لقد عرف أن الدنيا أكبر، بكثير من بلاده التى تملك كل هذه الكميات الهائلة من النقود، وأكبر بكثير أيضاً، من مصر.. أم الدنيا .

عندما يكون ، « واثقاً » ، وغير متعصب ضد رئيسه الذى يكرهه ، أو زميله الوغد الانتهازى «فإنه كان يقول لى أنه يريد أن يكتب كوميديا ناجحة : مثل « مدرسة المشاغبين » يريد أن يكون موضوعها ، واحداً من أغنياء العرب ، يذهب إلى أمريكا ، وهناك يضحكون عليه . ويحولونه من رجل الى امرأة . فيسرع بالعودة إلى بلاده ، لكى يدخل عالم الحريم ، هناك يستطيع أن يرى كل شىء، وأن يعرف كل شىء . فيكون قد رأى وجهين للمجتمع.. ثم يقول :

لكن عارف .. لا أحد يستطيع أن يكتب هذه الكوميديا سوى

مصرى علشان النكت .

كان ، صديقى « على » هذا ، يملك نشاطاً وحيوية ، وعقلاً ملتهباً ، وكان يقول لى جاداً متفلسفاً : نحن نمسك بعربة صغيرة ، أدارها صاحبها إلى الخلف . نحن نمسك بها بحبل نشده ، والعربة تدور ... ونحن نقاوم .. لكننا لانثير فقط سوى اطنان من الغبار .

* * *

(كل القصائد الكبرى ، لها قيمة الوثائق لأنها ، تتضمن ، طريقة المؤلف فى الكلام والمؤلف : إنسان ... مهم) .

* * *

«أنت من البحيرة ؟!» «أنا أيضاً من البحيرة » . «مركز ايه»؟ «مركز ايتاى». «بلديات» ... ياعم، أى والله بلديات.

وأصبحنا بلديات. شربنا المعسل. وأصبحنا أكثر من أصدقاء. إنه على الأقل، لا يتحدث بتلك اللهجة المصرية الغريبة.، التى تتكون للمصريين – العاملين هنا فتصبح خليطاً بين العامية والفصحى المحرفة. رغم «السبع صنايع». فهو ضائع تماماً. هناك خطأ ما فى أوراقه. قد يكون هارباً، أو متهرباً، أو عليه حكم قضائى، تفاصيل حياة أسرته الريفية الفقيرة، لا تغيب عن عيونه الحادة كعيون الصقر. تتراءى أمامه كحلم خاطف.

يعـيش هنا منذ سنوات، ويعـرف الناس، ويفـرز الحـرامى والنصـاب حتى وهو قائم على سـجادة الصلاة، يعرف السـوق والأسعار، ويعرف كم فى جيبك من ملمس يديك.كان «البحراوى» يعيش هناك عيشة غريبة. احترف عشرات المهن. كسب كثيراً، وتعطل كثيراً .. بل لقد طرد من البلد مرة.. واستطاع أن - يعود إليه.

شئ واحد كان - دائماً - يفعله مهما كانت الظروف، هو أن يرسل فى أول كل شهر جنيهات، تكفى وتزيد، للأسرة التى يعيش من أجلها. يعيش - الآن - فى غرفة صغيرة تحت سلم عمارة. أثاثه وهو الرجل الذى قارب الخمسين : حقيبة جلدية قديمة، و«بوتاجاز» صغير ووعاء لصنع الشاى و«جوزة» لشرب المعسل . لقد فقد شهيته للطعام . رغيف واحد فى النهار، وواحدة من «المعلبات» الفاخرة ... وليكن بعد ذلك ما يكون.

رأيت مصر فى المنام...

لشد ما تغيرت

وها أنا ذا أرحل عنك ..

عائداً يوماً أليك

«أن ما يثيرنى هو عدم شعورى بالارتياح مع أى إنسان تقريباً». الغربة تتساقط حولى ثقيلة. لا أستطيع حتى كتابة

المذكرات. رغبتى فى الامتلاك أو فى تحقيق أى مكسب .. تتحول إلى وهم بل إلى خطيئة.

* * *

لست شجاعاً ... فيما يتعلق بالكتابة.

... ولكننى حذر ...

* * *

الرقيب الذى يجلس فى داخلى . أغرب من ذلك الرقيب الذى كان يحتل لساعات قليلة، مكتباً صغيراً، يقرأ فيها بعض المقالات أو الأخبار، ونادراً ما يثير اعتراضاً، وإذا اثار فالاعتراض إما سطحى لا أهمية له، أو أنه يمكن تجنبه بتغيير صياغة الجملة، بحذف ضمير هنا، أو حرف عطف هناك، أو بجعل الفعل الحاضر، فعلاً ماضياً، أو مبنياً للمجهول.

الرقيب -- الذى أصبح يجلس داخلى – من الصعب أن أصفه لك.. إنه خليط غريب من الضابط، والشيخ المتعصب، والقسيس الجامد.. خليط من العصى الغليظة والسوط، من عسكرى «الهجانة» ذى الكرباج السودانى، وعسكرى الدورية الخامل، من المخبر المتخفى فى بالطو وجلباب أو المستتر وراء نظاره «ريبان» غامقة ذات إطار ذهبى . رقيب له ألف رأس، وألف عين وألف ذراع، رقيب يبعدنى عن نفسى وعن الناس ، وعن الأرض، رقيب يجعل أول

الجملة غير آخرها، رقيب من عيون الأصدقاء - الذين لم يعودوا أصدقاء، ومن الزملاء الذين شاركونى الفكر يوماً، ثم اختلفوا معى دون جدل.. وأصدروا عليّ أحكامهم.. بأننى قد «تغيرت» !!

رقيبى، هو ذلك البرجوازى المحافظ القديم، الذى يحتل جزءاً من أخلاقى، ويمنعنى من ارتياد الآفاق الصادقة للمعانى والقيم والأخلاق.

رقيبى : مصرى، وأوروبي ، دينى . وثقافى. جنسى ، وسياسى، رقـيبى يمنعنى من الكشف ومن الاتصـال. يمنع عنى حريتى ويحيلها إلى بضاعة معلبة تصرف على «البطاقة».

* * *

كانت الشقة مبينة بالطوب الأحمر، فوق بيت قديم، وأمام البيت الأبيض خلاء واسعة، يستعملها « الإخوان» للتدريب، والتمرين وللصلاة الجامعة .

الشقة التى هى «شعبة الإخوان المسلمين»، كانت مفروشة كلها بالحصير النظيف، بها عدد من الكراسى الجديدة، ومنضدة كبيرة ومكتبة صغيرة، ولوحات مكتوب عليها شعارات، بالحبر الأحمر والأخضر ومصا[illegible] صغيرة جديدة .. ولوحات قرآنية مختارة مكتوبة بخط واضح بسيط مثبتة على الجدران بمسامير صغيرة، كانت « الشعبة» مفتوحة طوال النهار، وإلى ما بعد صلاة العشاء

بساعات. دائماً مضاءة بالكهرباء، وبحرارة الإيمان، وحماس الشباب، ودائماً، عامرة بثلاثة أو أربعة من «الإخوان» القادرين على الحديث الساحر الآخاذ، تشع منهم رائحة النظافة والصدق، ينقلون لقلبى الصغير، راحة الإيمان، واستقرار السبل والمسالك. لم تكن الحياة فى ذلك الوقت مليئة بالضوضاء هكذا.

وإيقاع اليوم خاصة فى الأجازة الصيفية يبدو هادئاً ممتداً، التعود على الوضوء والصلاة يبعث نوعاً من الرضا والإحساس بالنضوج، وبأننى على اتصال بكل هؤلاء الرجال .. الكبار .. وأننى أصلاً - على اتصال - بخالقى - الذى يتيح لى من رضاه ما يغفر كل ذنوب المراهقة المركبة .. كان النوم ليلاً بعد صلاة العشاء الطويلة وقراءة القرآن .. يأتى وكأنه استسلام لمحفات ملكية تحملنى عبر بحيرات من الفضة والزئبق.

لم يكن أبى متعصباً، أو متطرفاً فى تدينه، ولكنه كان يتقن الصلاة. وقوفه أمام ربه، وصوته وهو يقرأ القرآن، والنور الذى يشع من جبهته العريضة بعد الصلاة، كان يقودنى إلى عالم من النور الخالص ، مرت على أبى سنوات قارب فيها التصوف والزهد.. كان يغلق باب حجرته عليه فنسمع فى البيت الكبير الهادئ صوت ترتيله للقرآن ، صافياً نقياً. وعندما تمر بالبيت أزمة مالية ، أو ضيق يطول. ويعشش فى الأركان . فإن قراءة القرآن الطويلة ليلاً

والجلوس على سجادة الصلاة البيضاء النظيفة المصنوعة من جلد خروف عيد الأضحى .. تكون هى الملجأ والملاذ.. نراقب تأثيرها السحرى على حياتنا وأيامنا ..

ليال طويلة جلست خلفه ، و البيت نائم ، و النور الخافت المنبعث من الصالة ، يدخل إلينا فى حجرته ، و يحيطنا – هو وأنا – بنوع غريب من الألفة ، ويخلق حولنا صلة خاصة جداً « بالله » .. كأن صلاتنا الليلية هذه سر خاص، أو هدية من المحبة الصوفية نقدمها لأفراد عائلتنا لكى تنفك ضائقتنا المالية. أو ينجح أخى الذى تعثر فى الامتحان. أو تشفى أختى التى حل بها مرض طويل ..

الصلاة فى « شعبة الإخوان المسلمين» مع الإخوان داخل «الشعبة» أو فى الأرض الخلاء النظيفة المقابل لها، كانت شيئاً مختلفاً، كانت تبعث فى نفسى فى ذلك الوقت شعوراً بالقوة والانتماء. الدرس الذى كان يتكرر بعد صلاة العشاء، كان يملؤنى بالأسئلة أكثر مما يقدم لى من إجابات. اثنان أو ثلاثة من الإخوان الكبار كانوا يتقنون الحديث الهادئ الذى يستطيع أن يمسك بدقة بأطراف مشاكل الحياة، ويعيد ترتيبها فى صبر، ولكن البعض الآخر كان يضرب بسيف بتار، يقطع ولا يصل يملأ النفس بمحاذير [illegible] الإحساس بالذنب والضالة..

كنا نتحلق فى حلقة واسعة فى غرفة «الشعبة» الداخلية بعد صلاة العشاء، يقدم كل منا نفسه. قائلاً : «أخوكم فى الله .. فلان»، ويتلوه الذى بعده، حتى تكتمل الحلقة، ثم يبدأ المتحدث فى إلقاء الدرس بعد أن تعارف الجميع..

بعض المتحدثين كان يسأل أسئلة خاصة عن حياة «الإخوان»، وعن أسرهم، وعن طريقة تصرفهم فى البيت، وكانت الإجابات تتميز بالصراحة والصدق والدقة، ولكنها كثيراً ما كانت تسبب أنواعاً مختلفة من الحرج الذى يقابل من المجموعة بضحك مكتوم أو سخرية مستترة. الفروق الكبيرة التى كانت بين مستويات الإخوان الاجتماعية والاقتصادية. كانت تطرح أنواعاً من الانتقادات على التصرف والسلوك، يتم طرحها والتعرض لها.. ولكن أحداً كان لا يستطيع أن يفعل فيها شيئاً، أو يقدم لها حلاً. لقد كان النشاط الدينى، والرياضى يترك عالم الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين الإخوان دون مواجهة صريحة، كثيراً ما تقال كلمات حول التكافل، والمساعدة والمساواة.. ولكن اللقاء المستمر، والحياة المشتركة التى تشمل أغلب النهار، كانت توضح هذه الفوارق، وتجعلها ظاهرة، وتجعلها تترسب فى النفس ثقيلة، - وكأنها رمال رطبة.

كان لى صديق غنى يسكن إلى جوارنا ويشترك معى فى «شعبة الاخوان» كان رياضياً، قوياً، ملئ الجسم، وقد أعطاه تفوقه

الرياضى مركزاً متميزاً فى «الشعبة» فقد كان رئيساً لفريق الكرة، واحداً من المعدودين فى المصارعة والملاكمة وكانت تقواه، وصلاته، وآراؤه الدينية، تتميز بالقوة والانضباط، يكاد أن يكون عسكرياً فى مظهره، ولكنه يتمتع بقلب طيب وعقل صغير منفعل. وفى جلسة من جلسات المناقشة، التى كانت تقام بعد صلاة العشاء، تحدث أحد الإخوان – دون أن يذكر اسماً محدداً – عن – شقيقة أحد «الإخوان» المخلصين. وقال إنها تذهب إلى مدرسة من المدارس الأجنبية، وأنها كثيراً ما تشاهد عائدة إلى بيتها بعد الغروب، كما أن نوع الملابس التى ترتديها لا تليق بشقيقة «لأخ مسلم».

تلفت حولى، فقد كنت أعرف أنه يقصد جارى هذا وأخته الجميلة التى كانت زيارتها لنا فى البيت تبعث كثيراً من الحبور والبهجة، فقد كانت صديقة لأخواتى البنات. وكان أبى أمى يعتبرانها نموذجاً للفتاة ذات المستقبل فهى تجمع بين التعليم الأجنبى حيث تتقن اللغات – سلاح العصر – وبين خفة الدم والشطارة. كانت أمى تحبها بنوع خاص، وتدعو لها دائماً بالتوفيق والنجاح.

رأيت وجه «الأخ» وقد استحال شاحباً أصفر، وارتعشت شفتاه.. وملامح وجهه، احتمل بقية الجلسة فى صعوبة، ثم انصرف مسرعاً، دون أن ينتظر أن نعود معاً كما هى العادة.

فى السهرة، وقد اجتمعت أسرتنا حول الراديو تسمع حفلا لأم

كلثوم فاجأنا صوت صراخ وبكاء قادم من بيت الجيران، هرولت والدتى بملابس البيت إلى بيت الجيران، وظل الصوت يعلو والصراخ يتصاعد، وكأن هناك شخصاً يذبح..

عادت أمى باكية، وقالت إن صديقى أخذ يضرب أخته ضرباً مبرحاً، وأنه أصاب فمها، وشج رأسها، وأنه يصر على أن تبقى فى البيت، وأنه سيقتلها لو عادت إلى المدرسة. لقد كان هو الأخ الأكبر.. وكان رب الأسرة قد توفى منذ سنوات.

لقد كان هذا هو أول عدوان شرس يرتكب أمامى باسم الدين.

لكن الأيام كانت كفيلة بحل الأزمة. التاريخ لم يتوقف. انتصرت الفتاة. واستسلم «الأخ» لا أدرى كيف. لقد كانت هى حركة الحياة، ولم يستطع أحد أن يوقفها.

سافرت الفتاة وحدها الى اوروبا . وعادت طبيبة كبيرة . لها الآن عيادة ضخمة واسرة سعيدة مفرحة ./ أما الأخ فقد اختفى، علمت فيما بعد أنه هاجر إلى أمريكا . وأنه يقيم هناك منذ سنوات بعيدة

* * *

«اقرأ باسم ربك الذي خلق .. خلق الانسان من علق.. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ..علم الانسان مالم يعلم..»

* * *

تعلمت أن أحب الكلمات . تعلمت أن لا أرددها دون فهم أو إدراك . فهم الكلمات ومحبتها، كان هو المفتاح السحرى، الذي يقودني إلى بهجة العقل ونعيم الفهم والتفكير .

من الكلمات المحورية التي شغلت وقتاً طويلاً في حياتى : وأعطاني فهمها وضوحاً وسعادة كلمة، الايديولوچية و«كلمة» «الدياليكتيك» والأن عندما أجدني مضطراً إلى ترديد مثل هذه الكلمات، فإنها تعيدني إلى تلك السعادة الواضحه الخاصة، التي كانت تصاحب فهمها لأول مرة وتشير لى إلى أن هناك مزيداً من السعادة، لو أننى حاولت مزيدا من الفهم ..

سألت احد الاساتذة الكبار، الذين رددوا هذه الكلمات مرة أمامي فأحالني إلى كتب كبيرة صعبة . ثم كانت خلوتي.. مع صفحات هذه الكتب المحتشدة، الضيقة السطور المليئة بالوقفات، والفواصل، والنقط والهوامش، تدريباً شاقاً وشيقاً . على ارتياد طرق الفلسفة الواسعة الواضحة والاستمتاع بحركة المنطق الهندسية المتعة.

كلمات كتب الفلسفة كانت تقيم قامتى الإنسانية، تجعل رأسى سامقاً يمسح السماء، وتملأ صدرى بالهواء الحر والنور.

قال لى واحد من الأساتذة الذين صنعوا بكلماتهم حياتى، ونحن نسير فى شوارع القاهرة الخالية ليلاً .

- أنت الآن طائر حبيس فى قفص المعرفة، والفكر. الفلسفة هى التى ستجعلك تحلق فى سماء العالم. ليس مثل الفلسفة شيئاً يجعل من هذا الواقع الضيق عالماً بلا حدود. فى مكان ما سوف يلتقى الفكر بالعمل. سيصبح الحلم نضالاً، ورغبة فى التحقيق، ستصبح وحدة الإنسان مع ضميره. انتماء إلى رفاق طريق تجمعهم به وحدة المصلحة.. ووحدة المصير.

فى الجامعة كنت أشهد «تغيراً تاريخياً» .. فقد تلقيت علوم القانون فى كلية الحقوق على يد آخر جيل من الأساتذة الكبار، شهدت كذلك مولد المدرسين الصغار الذين تسابقوا إلى طبع «الملازم» و«بيع» العلم كانت الحقوق قد بدأت تفقد صفتها الأساسية كمصدر للوزراء، والسياسيين والكبراء، وتتحول إلى معمل تفريخ للمحامين الصغار أوكتبة المحاكم ..

كان الأساتذة الكبار يقابلون الاعداد الكبيرة التى تحتشد فى المدرجات بنوع غريب من الاستشهاد والسخرية. ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه. فقد كان حادث الاعتداء على مجلس الدولة، وعلى «السنهورى باشا» عملاق القانون المصرى، وصاحب أكبر مدونة قانونية قد ألقى ظلاً قاتماً ثقيلاً على مستقبل القانون والقانونين. وكان المدرسون الصغار يسارعون إلى احتلال مواقع العمالقة. فتظل كلماتهم صغيرة، ويظل مكان العمالقة العالى خالياً، لم أكن أواظب

على حضور المحاضرات إلا عندما يكون المحاضر، واحداً من هؤلاء الكبار، الذين يملكون القدرة على تحويل مواد القانون، المدنى أو التجارى أو الجنائى .. أو حتى قانون الاجراءات إلى قضايا عامة، ترتبط بحياة المجتمع، وتحيل كتل الطلاب المتزايدة كل يوم، إلى مجموعة من الآذان الصاغية، والعيون المتطلعة.. تتابع قدوة فى الفهم وقدوة فى الشرح .. وفى السلوك.

محاضرات المدرسين الصغار كانت تتحول إلى «سوق» للبيع والشراء ويتحول القانون إلى تحايل، أو لعب صغار أو محاولة لاستعراض الأستاذ لنفسه أمام البنات، للدكتوراه التى حصل عليها من أمريكا، أو للبدلة الجديدة.. أو العربة الجديدة أو التسريحة الجديدة..

شاهدت فى تلك السنوات، كيف تحول أستاذ الجامعة إلى موظف، يتباهى أمام طلبته بعلاقة له مع ضابط كبير.. أو مسئول خطير فى الدولة. فى هذه الأوقات كنت أهرب من كلية الحقوق إلى مكتبة الجامعة القائمة فى وسط كلية الآداب.

* * *

«نحن لم نعد حيوانات.

ولكننا - بالتأكيد - لم نصبح - بعد - بشراً ..»

* * *

فى قاعات المطالعة بمكتبة الجامعة، تعلمت أغلب ما أعلم، تلك المناضد الخشبية القديمة، بنية اللون، يسقط عليها الضوء من نوافذ زجاجية طويلة، أرى منها ساعة الجامعة، وقطع من السماء الصافية. كانت بيتاً لى وملاذاً. كان الدخول إلى المبنى الضخم حيث الضوء خاص فريد، والصمت ما أزال أسمعه فى أذنى. كان الدخول إلى هناك يعنى أننى سوف أعيش ساعات جديرة بالبشر..

قرأت – تشيكوف. ودستيوفسكى وتولستوى.. غامرت مع كتب الفلسفة والكتب الماركسية، وحاولت مع شكسبير والمسرح اليونانى، قرأت بنهم وبلانظام.. كنت أقرأ حتى تأتى الساعة الخامسة. بعدها انتقل إلى «بوفيه كلية الآداب» هناك كنت أجد جماعات متناثرة من محترفى الحديث والنقاش فى الفن والأدب والسياسة، هناك ترددت أمامى كلمات مثل «أزمة الإنسان المعاصر».. و «الاغتراب» و «التمرد». لم أكن أتقن الحديث فقد كنت أنشغل أكثر بمراقبة حركات الأيدى، تعبيرات الوجوه، فكثيراً من الكلمات كانت فى أغلب الأحيان أقنعة لحالات إنسانية.

عرفت هناك الرفاق اليساريين، وأمضيت معهم أوقاتاً عظيمة مازالت بالنسبة لى دليل على قدرة الإنسان على التضحية، وقدرته على أن يهب نفسه ووقته وحياته لقضية يؤمن بها، مهما كان الحلم بعيداً، ومهما بدا الجهد الذى يستطيعه الإنسان ضئيلاً ومحفوفاً بالمخاطر.

لقد كانت «الثورة» في ذلك الوقت «تتشكل» وتتحول إلى «نظام». كان هذا التحول والتشكل يتم بعيداً عن الناس. وكان اليساريون، يحاولون أن يشتركوا أو يساهموا في هذا التحول، ولكن التحول كان سريعاً قوياً، يجرف في سبيله كل شيء وكانوا هم في أغلب الأحيان غارقين في خلافات داخلية .

قضايا التغير، والارتباط بالناس، كانت تتحول في منشوراتهم الى، اكليشيهات وكلمات مرصوصة، وكان الفعل اليومي المتصل المتصاعد، يبدو بعيداً ومستحيلاً، فقد كانت أغلب حركاتهم ، «ردود أفعال». وكانت الجرائد وخطب الزعماء تأخذ منهم المبادرة، وتسرق «الشعارات » وتتركهم وكأنهم بقايا انحسر عنها الموج ..

لقد تم بسرعة «تأميم» كلمة الثورة، دون أن تعيش حرة قوية في نفوس. لا أعرف كلمة أكثر قدرة على إيقاظ نفس البشر من كلمة الثورة، إنها تعني القدرة على التغير، والحماس، ووضوح الهدف، وامتلاك الوسائل للفعل والحرية في الإقدام عليه.. ولكن سرعان ما تتحول الثورات إلى «أنظمة» و «أجهزة» و «مصالح».

راقبت ما يحدث دون فهم واضح، أو وعي محدد... وكان انشغالي بالأدب يبدو لي وكأنه الممكن الوحيد، حاولت أن أدفع عن نفسي رذيلة الانعزال. «والانغلاق» و«التقوقع». ولكن كل ما كان يحيط بالعمل السياسي من لا جدوى وعبثية، كان يجعلني أجد أن الحقيقة الوحيدة موجودة في الفن .. أو الأدب..

ما زلت أحاسب نفسي على هذا الاختيار حتى الآن، ولكنه في

الحقيقة كان بحثاً عن توافق شخصى.. فانا لا أحب العمل بالسياسة..

«الفن .. لا يعلم الانسان شيئاً سوى دلالة الحياة»

* * *

فى دنيا الفن وحده .. يمكننى أن أكون عبداً .. وسيداً .. فى نفس الوقت»

فى يونيو. ذهبت جيوشنا إلى الحرب .. ولم تعد.

سماء ميدان التحرير بها فرقعات وصواريخ. مولد أقيم فجأة وأنفض فجأة

أنا وصديقى جالسان فى الظلام على الرصيف نلتقط أنفاسنا أعلن عبد الناصر الهزيمة على شاشة التليفزيون. وانسحب.

......

تفرق كل من فى البيت دون أن نتبادل الكلمات . نزلنا إلى الشارع نبحث عن طريق، وأجهش البعض بالبكاء.

المحلات مغلقة، صرخات النسوة الملتاعة هى الصوت المسموع، الصوت كأنه يأتى من السماء. نسيت اسمى، ومن أنا ، وأصبح تجاورى مع صديقى يمليه - فقط - الخوف والضرورة.

ملامح الميدان الكبير تظهر عندما يلمع ضوء فى السماء ... كأنها خرائب. صراخ النسوة القادمات من «عابدين» ومن «معروف» تحيط بى ... تزيحنى من الطريق. وتدفعنى كى أستند بظهرى إلى جدار عمارة كبيرة. سجائرى كادت أن تنفذ، وفى حلقى جفاف شديد.

* * *

اندفعت فى شارع سليمان باشا، كان الليل قد هبط مبكراً جداً، وثقيلا جدا، وجماعات من الناس تجرى بلا اتجاه مخلفة وراءها صمتاً شديداً.

فى وسط الشارع، رأيت رجلاً مخبولاً يرتدى جلباباً قديماً وقد شمره إلى منتصف جسده، يحمل فى يده جردل ماء، وخرقة كبيرة، ينشر الماء حوله، ويصيح صيحات غير مفهومة وهو يجرى وكأنه يطفئ حريقاً لا وجود له.

* * *

دخلت إلى مبنى جريدة كبيرة كانت طرقات الدار خالية. النور فى الصالة الكبيرة مضاء. مكتب الرئيس الكبير خال. جلس إلى مقعد أمام المكتب. بعض الشبان التفوا حول منضدة أمامهم أوراق متناثرة. يسجلون فيها كلمات لا معنى لها، التليفون يدق، الرئيس لا يتحرك، أحد الشبان يرد. يقول: «حاضر. حاضر. نعم. طيب» كان «الرجل» الذى يقدم القهوة. واقفاً فى ركن الغرفة، والصينية مدلاة فى يده. الرئيس يخرج من جيبه حبوباً، يشرب بقية من كوب ماء. يقوم واقفاً إلى المنضدة الكبيرة. يخط بقلمه كلمات كبيرة يتكلم بصوت خافت. الغرفة مليئة بالغرباء. يمسك التليفون. يستند إلى مكتبه. يقرأ فى سماعة التليفون كلمات، يعيد ترتيب الأوراق. ثم يجلس مرة أخرى إلى مكتبه. بعد لحظات سمع فى المبنى هدير ماكينة الطباعة.. صدرت الجريدة تحمل أغرب الأخبار.

* * *

أيام، وليال، وأسابيع كأنها زمن متصل. كأن الدنيا مقلوبة رأسها قد تدلى إلى أسفل.

كيف يستطيع الناس صياغة كل هذه الجمل، والشعارات. والكلمات . الهزيمة. النكسة . النكبة.

كيف لا يسكت هذا التدافع المجنون، على الطعام والشراب.

دخلت الجامع فزعاً. كانت على الباب شحاذة تضع إلى جوارها عدداً من الاطفال ،فى كومة من الخرق. كدت أدوسهم بأقدامى. قبل أن أخلع الحذاء. مدت يدها القوية المعروقة تمنعنى من السقوط صاحت:

– أعمى. أعمى . حاسب . ألا ترى كوم اللحم.

كدت أسقط فوقهم . ولكننى اندفعت أخلع حذائى. كان الجامع ممتلئاً بالأصوات الغريبة. والناس بين راكع وساجد. ومكان الإمام خال. ليس فيه أحد. عمود الميكرفون يقف وحده . معدنياً بارداً لا يقول شيئاً. أسندت ظهرى إلى الحائط. راقبت نوراً شاحباً يدخل من زجاج.

* * *

فى المقهى كانت «البغى» تجلس، نصف جسدها عار، فى المكان الذى اعتاد الشاعر أن يجلس فيه، أما الشاعر . فقد سقط سكراناً على أرض الشارع .. يتأمل انعكاس الضوء فى مستنقع ماء قذر.

وقف أحدهم خطيباً. فى جمع أدار له ظهره. كان يخرج من جيبه أوراقاً، ونقوداً. ينثرها حوله، ويصيح صيحات الحرب، ثم ينخرط فى البكاء

مدينتى خلت من الرجال
صار يومى غربلاً قديماً
وطعامى ملح مر

* * *

فى المقهى كان الرجال يدخنون الحشيش. بعضهم يلعب الكوتشينة ويصيح .. أقطع – فرق – بصرة..

– يابن .. الـ ...

يغطى الجميع دخان أزرق.. تهدأ الأصوات قبل طلوع الفجر.. أطرافى لا وجود لها . وعيونى تراقب أرقام الكوتشينة والصور.

– ولد .

الرجل النائم يقوم لكى يشد أنفاساً قوية.. ثم يسقط متمدداً على دكة مجاورة بلا حياة.

فى الفجر نخرج جميعاً، كأننا فئران تخرج من شقوق قذرة تحمل إثماً ثقيلاً. وذنوباً لا تغتفر.

أجر أقدامى بحثاً عن هواء.
على شاطئ النيل الهواء ثقيل.
صفحات الكتب بيضاء
أصبح من الضرورى .. أن نخترع معنى جديداً.

لكل الكلمات..

ليس فى رأسى سوى الفتات

* * *

كنت أحب مدينة السويس جداً .. خليجها .. وشاطئها .. وشوارعها القديمة فى هذه المدينة شىء وكأنه خليط من أرض بحرى والصعيد. كانت السويس - بالنسبة لى - مدينة فريدة - كأنها قلعة، قوية آمنة. تحضننى شوارعها، كما تحتضن المدينة جبالها العتيقة. بدأت فيها أكتب أول سطور من رواية لم أنته منها أبداً. وظلت سطورها الناقصة تذكرنى بالسويس. وتشد أحلامى الغامضة إلى هناك .. ولكننى لم أذهب إلا بعد أن حدث ما حدث. دخلتها ذاهلاً. بعد الهزيمة. لم أجد المدينة، ولا الناس. النوافذ المخلوعة والشاطىء ملىء بالبقايا. النخل محروق والشوارع خالية مقلوبة العربات - التى كان يسهر حولها شباب السويس يأكل سندوتشات الصورنباق والسريديا وحيوانات بحرية مليئة بالشطة والطحينة - مضروبة فى مكانها ومحروقة.

خلف كشك سجائر محطم، زير ماء مكسور. وشجرة لوف خضراء قاومت الحريق. وعجوز وحيد يجمع فى صمت قطع الخشب والحديد والكرتون.

عربات جنود محطمة. ومراكب صيد مقلوبة. وعشرات ما زالوا يتدافعون للحصول على مكان فى عربة أو قارب صيد. تنقلهم إلى أى مكان .

مقاه فى داخل المدينة ما زالت تعمل يقف فيها رجال كأنهم فوق الأحداث. وبعد الزمن. يقدمون الشاى والبورى. وأكواب الماء. لزبائن مهزومين. يجترون أحلاماً غير قابلة للتحقيق. أو «لشطار» يلتهمون بقايا الهزيمة.

تداخلت شوارع المدينة. وتحولت حواريها إلى أكوام من الطوب والتراب والأثاث المحطم. مرتبة قديمة. ومخدة حمراء وسط كومة من تراب وحديد وخشب «وجبل عتاقة» يطل على المدينة كلها من بعيد. تضرب فيه أشعة شمس حارقة، يتسلقه دخان وغبار لم يهدأ بعد.

الآن.. ومنذ الأزل.

يقف عمود معبد الكرنك هناك!

أليس هذا كافياً ...؟

التدمير يجعل العمود قوياً ...

يجعله يبدو وكأنه على حق

العمود أعلى من أى سقف!

لقد ظل - دائما - يحمل سماء مصر!

* * *

عندما دخل المهاجرون القادمون من القناة إلى القاهرة.. سكنت معنا الهزيمة واستوطنت. وتحولت إلى مرض مزمن.

سمعت بعد ذلك كلمة «السرطان» تتردد كثيراً لو أنهم أحسنوا تسمية هزيمة يونيو لقالوا عنها «سرطان» وسمعت شرائط

الكاسيت المليئة بالسح والدح وخوار الرجال.

الشوارع لم تعد تحتمل. البيوت لم تعد تحتمل. سكن الناس المقابر. فى ضمير مثقل بالذنب والعجز كنت أذهب إلى هناك. أهبط من الشارع الكبير، فأجد نفسى وسط جماعة من بورسعيد، تسكن مقابر القاهرة الشرقية. هناك يقدمون كل شىء حتى الضحك الذى يسقط قبل أن يصل إلى الأذن.

تنمو هناك أنواع غريبة من الغنى والثراء.. كأنها تقتات على الموت.

وتنمو أنواع غريبة من الذوق ومن الضمير. ومن القيم. تصعد الشارع وتنتشر فى المدينة. وتملأ الاسواق..

* * *

إلى جوار محطة مصر، قامت مدينة من خشب تمتد بطول السكة الحديد. الجدارن من خشب. والأسقف من كارتون أو بلاستيك. يسكن هناك نساء غليظات، وأطفال بلا حصر، ورجال لاتعرف لهم عملاً أو مهنة. أطال الشبان شعورهم القذرة. ولبسوا الأحذية الملونة ذات الكعوب العالية.

غطى وجوههم لون كابى من تعاطى الحبوب. نقودهم كثيرة. وفقرهم بشع وحياتهم بلا مستقبل. تحيطهم قذارة وكذب.. يأكلون لحم إخوانهم حياً.

أدور فى هذه الأحياء طويلاً أصبح لى من هؤلاء أصدقاء (لقد تغير معنى الصديق). مارست هناك الحب (فقد تغير معنى الحب).

أحصيت عدد الذين هاجروا من أسرتى وأصدقائى فوجدتهم عشرة.

قالت لى امرأة تبيع ليلها، وثديها، وقد دهنت غرفتها باللون الأحمر.

- لم يعد الرجال هنا، يعرفون كيف يضاجعون النساء..

وكانت هذه كلمة مفضلة يرددها كثير من المثقفين.

أبحث فى القاهرة عن حى قديم، عن زقاق رطب، عن وجه صديق ولكن مدينتى صارت غريبة، صوت الشعراء فحيح، جعلتنى سنوات الهزيمة شيخاً بلاحكمة، وسكن فى قلبى البوم.

سألت الغرباء، عن وطنى!

طرقت الأبواب ولم يفتح لى.

وامتلأ الكون بأنكر الأصوات.

أرى شرخ الزجاج الذى بدأ دقيقاً ثم اتسع.

الشرخ الذي لا يرتق ولا يجبر.

أراه وهو يتكون فى نفسى.

الشيطان والتخلف والأصدقاء

سمعت بيان طرد الملك فاروق من مصر، فى الساعة السادسة عند الغروب. من راديو الساكن الذى يقطن معنا. فقد كان الراديو الخشبى الكبير الموجود ـ فى صالة بيتنا ـ قد تعطل.

لم يحدث من قبل ـ فى حياة صبى مثلى . أن توقفت دورة الافلاك ـ هكذا ـ أو ارتبكت.

عيون الكبار ـ فى ذلك اليوم ـ هتافهم أو صياحهم، لم يقدم لى تفسيراً أو تبريراً، فرحهم لم يبدد حيرتى. «رحيل الملك»، والغروب «السلام الملكى» الذى يعزف فى غير موعده، كل ذلك يتركنى فى دوامة من الأسئلة، ولا أحد يقدر على تقديم إجابات.

ماذا بعد رحيل الملك، ماذا بعد الغروب المفاجىء؟ ماذا وراء هذا التبدل الكامل وتغير الآفاق .. وقتها كان «مثال الوطنية» بالنسبة لى، هم هؤلاء الفدائيون الذين يحاربون فى أرض القناة. أراد أخى الكبير أن يذهب لكى يقاتل معهم، لكن الأسرة منعته. ووقف فى طريقه أبى، وأمى، وكل الأسرة. قالوا له ما معناه أن الأسرة هى الوطن، وأن مواصلة التعليم كفاح. لم تقنعه هذه الكلمات، وظل صوته العالى يتردد فى ذهنى مخنوقاً بالبكاء والقهر.. يتهمنا جميعاً

بالجبن. ويؤكد أنه سيذهب، سيذهب يوماً ما، ولن يعود. ولكنه لم يذهب.

ظل وجوده بيننا، تأنيباً مستمراً، ونوعاً من الاتهام، أشعر به حارقاً كلما سمعنا عن قنبلة انفجرت. أو شهيداً سقط، أو عن البوليس الذى احترق فى مبنى المحافظة، وهو يقاتل الانجليز، ويدافع عن شرف الوطن.

* * *

كان ميلاد، الحركة «ميلاداً بلا حسبان»، وغلب اللون «الكاكى» كل الألوان. لم أكن أفكر قبل ذلك أن «الجيش جزء من الشعب» كنت أراه فقط فى المناسبات.

أما بطولات الحرب الفلسطينية التى سمعت عنها: «الفالوجا» و«الضبع الأسود»، فقد هزتها بالنسبة لى كلمات، الهدنة، والتقسيم، وقيام إسرائيل والأسلحة الفاسدة.

لم أكن أفكر فى أن الجيش يستطيع أن يحقق الوطنية. كنت أرى الضباط، وكأنهم طواويس للزينة. يحبون الأشرطة الحمراء، والنجوم النحاسية وفى التراث الشائع وقتها، كنت أرى الضباط على أنهم غير قادرين على الفكر. وأنهم فى أغلبهم هاربون من الثقافة، ويحبون البعد عن السياسة.

أخذنا نردد فى المدرسة نشيداً، يتحدث عن «الاتحاد والنظام والعمل».

واستطاع «اللواء محمد نجيب» أن يتحول فى ذهنى إلى تجسيد، لوحدة مصر والسودان. وحدة جديدة مدججة يسندها جيش ودبابات. لقد كانت حركة الجيش تزرع فى الواقع من حولى نبضاً لقلب جديد.

كلمات الضباط الجدد، التى تذاع بالراديو. بعد اختفاء الباشوات والخطباء الذين يلقون خطباً بليغة. كلماتهم هى الأخرى كانت جديدة، كانت تقال بلغة عامية. أو بلغة عربية غير سليمة. تحيط بهم أنواع جديدة من الجماهير وأصوات هتافات جديدة.

صورة «الضباط الأحرار» الذين قاموا لكى يغيروا مصر، وعرباتهم التى كان الفلاحون يحملونها فى القرى، ويجرون وراءها فى الطرق الزراعية صورتهم تلك كانت أقوى من التردد والتخوف، الذى يثيره حولهم الكبار الذين يتحدثون بلغة «صلاح سالم» و«جمال سالم» «البغدادى»، و«كمال الدين حسين»... وغيرهم. كانوا يتحركون بسرعة وفى كل مكان وتتلاشى أمامهم الصورة القديمة.. وكأنها تفر أمامهم هاربة.. أو تتهاوى متفتتة.

عندما وقع «العدوان الثلاثى». وجدت نفسى أشعر. بأننى جندى خرج لقتال العالم.. حارب، وحقق بنفسه الانتصار، شاهدت الطائرات - لأول مرة تهبط حتى تكاد تمس بأجنحتها شوارع القاهرة. وسمعت صوت «البكباشى» يتحول على منبر الجامع

الأزهر إلى صوت زعيم ينادى الشعب أن يحارب من أجل ما هو حق، وعدل، فى تلك الأيام، تحققت فى نفسى صورة لمصر الجديدة، مصر الشعب البطل، الذى يقهر الاستعمار. ويرتبط بالعروبة ارتباطاً جديداً، ويخلق صورة للعالم الثالث. ولدت صورة جديدة لمصر الحبيبة، ولدت هذه الكلمات فى نفسى، لا كما تولد الشعارات ولكن كما تولد الكائنات الحية قوية صادقة، تغير الرجال وتغير أفق حياتهم.

لست أسرد تاريخاً. ولكننى أتذكر، أتذكر لكى أتتبع فى نفسى جذور تلك الازدواجية المؤلمة، التى عشت أعانى منها منذ ذلك التاريخ.

لقد كان النصر الكبير - الذى بدا لنا أننا، حققناه - فى ذلك الوقت، هو البداية.. بداية الفخ. الذى حولنى أنا إلى طبل أجوف.

أرى شرخ الزجاج الذى بدأ دقيقاً ثم اتسع. الشرخ الذى لا يرتق ولا يجبر. أراه وهو يتكون فى نفسى منذ أن عرفت أن النصر الذى حققناه ليس كبيراً إلى هذا الحد. عشت بعدها. كل يوم معنى جديداً.. اكتشف انفصالاً جديداً بين الشعارات والواقع أكابد كل يوم معنى جديداً.. من معانى التخلف، الشيطان الذى يسكن بين حجارة الجدران، التخلف الذى يجعلك تمتلك أحلاماً ولا تمتلك وسائل، أن تقول ما لا تقدر على فعله أو تحقيقه.

قام عبد الناصر، قوياً كبيراً، يحرك الشعب، ويقوده فى طريق واسع كبير ولكنه لم يكن قادراً على أن يغير الإنسان. منذ ذلك الوقت والمشكلة الحقة الوحيدة هى أن تجد البلد تنظيماً سياسياً حقيقياً، يخلق المواطن الجديد فى تلك الرقعة الواسعة التى شعرنا بالانتماء إليها.

عانيت تحول البطل الكبير إلى مؤسسة، وتعلمت كيف تتحول الثورة إلى نظام مشغول بحماية نفسه. حركة الواقع من حولى كانت تكشف لى. أنه لا يتحرك سوى المصالح، ولا يتقدم سوى الانتهازية. المعنى الطاهر والكبير لكلمة «الثورة» كلماتها الكبرى، قضاياها .. كانت تترك فى أيدى وجوهاً صغيرةً. لا أدرى من أين كانت تخرج، كأنها الأفاعى تلتف حول ساق شجرة الثورة الكبير.

فى الفكر والأحلام ، كنت أشعر أننى أمتلك تلك الثورة ، وأننى صاحبها ولكن الممارسة فى الواقع كانت تؤكد لى أن للثورة أصحاباً آخرون..

سنة بعد سنة.. كانت تكبر كلمة «هم يريدون!» من هم؟ ولماذا «هم» يريدون؟ ولماذا يحدث ما يريدون؟ سنوات طويلة.. أراقب كيف يخلو المجتمع من حولى من القنوات الطبيعية التى تشبه الشرايين......... القنوات التى تبقى المجتمع كائناً حياً تصل بين البشر فيه، قيماً وممارسات وسلوك تنتزع ويوضع بدلا منها، أنابيب من البلاستيك وشرايين صناعية. تصنعها أجهزة غامضة. يصنعها

العجز عن التطبيق والإنتهازية، وكل صور الفساد فيستحيل أن تصل المعانى الجديدة إلى قلوب الناس. ويستحيل أن يتحولوا إلى بشر متحرر حقاً من ... الجهل .. والفقر .. والمرض.

...... تماثيل رخام.

ع. الترعة. وأوبرا !!

«صلاح چاهين»

* * *

«والازدواج»، قضيتى الشخصية، إنها ليست مسئولية الدولة. أو النظام.

إنها قدرى ومصيرى، لقد كبتت الحريات أوقاتاً طويلة.. كذلك يفعل أى نظام وأى ثورة، وأى دولة.. ولكن التشوه الذى حدث كان مسئولية «المثقف» إنه يكمن فى نكوصه، وعجزه عن أداء دوره!.

أمسكوا «هم» المثقف من يده التى تؤلمه. من انتهازيته، وطموحه المريض. أو من آماله الغامضة بأن يصل إلى تحقيق سريع تعودنا على تزييف «عملة الكلام» على قول الشىء. ونقيضه تاجرنا حتى بالإيمان والعقيدة وفقدنا الوعى ثم استعدناه ... وعدنا نفقده من جديد..

الأمر كما أشعر به شخصى جدا... وخطير جدا.

يهم كل شخص .. وليس اتهاماً لدولة أو نظام.

هو ليس كذلك محاولة لتعرية النفس أو اتهامها.. هو محاولة -

متسرعة ـ لتوصيف المشكلة .. ومحاصرتها.

* * *

حكم مصر فى تلك السنوات الممتدة من ٥٢ حتى الآن، رئيسان كانا معاً من الضباط الأحرار، وأراد كل منهما أن يحقق وجهاً مختلفاً لمصر، كان لكل منهما تاريخ وتواريخ مختلفة. وكان لكل منا موقف مختلف منهما معاً. موقف معلن، أو موقف جبان. كثيرون هم. من دخلوا السجون، وكثيرون يحملون فى أجسادهم أو نفوسهم.. آثار التعذيب، أو القهر أو التشوه..

كثيرون؟! نعم كثيرون من تلك الأقلية التى منها، أنا.. ذلك المثقف، ابن الطبقة المتوسطة..

لكننا جميعاً ـ كنا ـ فى كل الأوقات .. نأكل .. ونشرب .. ونتناسل فوق أرض هذا .. الوطن..

كانت صدمة كهربائية ـ حقاً ـ تلك التى وقعت لى عندما زار الرئيس السادات القدس.. وأقام علاقة مع إسرائيل. أول صدمة كهربائية فى حياتى.

كانت شوارع القاهرة ـ خالية ـ يوم وقفة عيد الأضحى. عندما ذهب إلى هناك وكانت مليئة بالبشر عندما عاد. راقبت خطواته مذاعة بالاقمار الصناعية فى التليفزيون وأحسست أن عصراً مضى وعصرا يجىء.. لكننى ـ أنا ـ كنت قائماً على حالى. مراقب متفرج

شاهد على كل العصور.

لا أجد من يسألنى..!

ولا أعرف ـ أنا ـ كيف أجيب!

لكن مناحم بيجين ـ اليهودى العجوز ـ قال وأنا أقرأ مقدمة كتابه «قصة الأراجون أو التمرد» قال فى أول كلمات المقدمة «كتبت كتابى هذا لشعبى. خشية أن ينسى اليهود .. «مرة أخرى».

«كما نسوا من قبل».

أن هناك أشياء

أثمن من الحياة.

وأفظع من الموت.

«مناحم بيجين».

* * *

الورقة الأخيرة :

من الممكن أن لا ننتهى. من تلك الأوراق أو الصور. إعادة الربط بين أى واقعة، وبين مسيرة الزمن تطرح آلاف الزوايا، وآلاف الاحتمالات... الثلاثون عاماً من ٥٢ ـ ٨٢، هى حياتى الواعية.. هى الماضى، والحاضر والمستقبل. والذاكرة هى حياتى .. وهى دافعى للوجود.

حركنى لكتابة هذه الأوراق : رواية صغيرة صدرت منذ أعوام فى كوبا هى «ذكريات التخلف» للكاتب «ادموند ديزنوس».. بطل

الرواية كاتب تتركه زوجته وأمه وأبوه فى «هافانا» العاصمة ويهاجرون جميعاً - مع كل الأصدقاء - إلى أمريكا، تاركين الكاتب فى وحدة صريحة وعارية مع الثورة الكوبية التى تحاول الخروج بكوبا من عالم التخلف، أو على الأقل تدعى ذلك.

أحسست بقرب شديد لهذا البطل. أحسست بوحدة التجربة وتماثل الظروف جعلنى هذا البطل أشعر بأن تخلف الواقع من حولى جسداً أصارعه فى صباحى ومسائى وأن رؤيته ومعرفة أبعاده هو المحاولة الوحيدة التى يمكن أن تضع قدمى على طريق جديد.

الأحداث كثيرة فى كتب التاريخ، والتفاصيل الفنية الموحية موجودة فى روايات وقصص الكتاب ولوحات الفنانين. المهم بالنسبة لى هو «الصوت».

ذلك الصوت الذى يقدم نقداً بصيراً مخلصاً يستهدف تطوير ضمير الناس، وتحريك وعيهم.

«الصوت هو المهم، هو الموقف».

من بين آلاف الأصوات تستطيع «الأذن البسيطة» تبين الصوت الصادق.. من الصوت الزائف.

خداع النفس طريق لا ينتهى.. وأنا أعرف نفسى أكثر من أى شخص آخر .. أعرف انتمائى للطبقة المتوسطة .. ورفضى لهذا الانتماء. أعرف الحصار الذى يضربه حولى التخلف.. أعرف محاولتى الدائبة للخروج منه.

عندما وقع «حادث المنصة» فى ٦ أكتوبر. عندما وقعت تلك المأساه الاغريقية.. خرجت إلى أطراف المدينة.. أحاول أن أراها من بعيد.. أحسست أننى بضاعة قديمة.. يعرضها بائع حلوى فقير.. أمام مدرسة ابتدائية، حلول تافهة معروضة أمام أطفال.

إغراء البضاعة ليس شديداً.. وقد تكون ضارة. وبائعها لا يهتم كثيراً بطريقة عرضها...

هكذا جعلنى تخلفى .. وهكذا جعلنى انتمائى للطبقة المتوسطة.. عاجزاً عن أداء واجبى أداءً كاملاً .. عاجزاً عن أن أتحدث بكل الصراحة الممكنة.

لكننى أردت فقط أن تسمع صوتى.. فهذا أضعف الإيمان..

أليس من حق الأنسان أن يلتقط أنفاسه!

ينعم بحياة مستقرة بعض الشئ،

هادئة بعض الشئ،

مفهومة بعض الشئ! ...

آخـــر كـــلام ..
بعـــد ١٢ ســـنة

لا أحب مقدمات الكتب. عادة لا أقرأها .. لذلك كتبت كلماتى هذه بعد أن تكون قد قرأت باختيارك.

هذه الأوراق أراها، محزنة، محيرة، وكئيبة. لكنها صادقة، صدق الدم النازف من جرح جديد..

هى أوراق حقيقية. كان من الضرورى أن تكتب لأنها كانت البديل الوحيد للهروب مع أى شيطان أو للانتحار.

لم يكن من الممكن أن أفكر فى «الشكل» أكثر مما فكرت: هى قد تكون رواية، أو اعتراف أو أجزاء من سيرة. فيها كلمات لى وأقوال لغيرى. أردت بها أن تسمع ـ أنت ـ صوتى. ليس ككاتب يحمل حكماً على الأشياء أو حكمة، ولكن كإنسان حائر وحيد، يؤنس وحدته أن يتصور أن لكلماته قارئاً حائراً وحيداً مثله.

....

ماذا حدث لنا فى تلك السنوات (٥٢ إلى ٨٢) ؟ ماذا حدث للناس وللبلد؟ من أين لإنسان يشعر ويفكر أن يحتمل فى حياته كل هذه التقلبات والتغيرات؟ أليس من حق الإنسان ان يلتقط أنفاسه! ينعم بحياة مستقرة بعض الشئ، هادئة بعض الشئ، مفهومة بعض الشئ! ...

يقول الناس «كل يوم له شيطان».

وشيطان كل تلك الأيام كان يعمل بجد واجتهاد، لكى لا تكتمل الأعمال ولا تتحقق الأحلام، يعمل لكى يسود صراع دامى بين الناس، وأن تصل إلى نهاية يومك، منهكاً مهدوداً، وأنت فى الحقيقة لم تحقق شيئاً. تغيرت معانى الكلمات ووجوه الناس، وخطوط الأفق فى القرى والمدن. تغير الصوت والصدى. الظاهر والباطن حتى النخاع. والتغير سُنة الكون منذ كان لكننى أعتقد أن التغير لم يكن يحدث من قبل بهذه القسوة، والسرعة، والفظاعة.

ثم هل هذا التغير إلى الأفضل؟

أشك! ليست المسألة تفاؤلاً أو تشاؤماً، لكنها مسألة شعور بالانتماء. ما أكثر ما أردد - بينى وبين نفسى - أننى لا أنتمى إلى هذا العصر.

ليس فى هذا الشعور أدنى إحساس بالتميز أو الامتياز، كما أنه ليس ندبا على ماضٍ، أو استعذابا لتعذيب النفس أرى أن هناك خطأ فادحاً فى الطريقة التى وقعت بها هذه التقلبات والتطورات والتغيرات على رأسى فأفقدتنى اتزانى، وقدرتى على معايشتها بمنطق سليم.

....

أفقدنى هذا التغير السريع المضطرب، قدرتى على الانتماء،قدرتى حتى على التصديق. لم أكن مشاركاً ولم أكن

مطلوبا. عندما تحطم «المشروع الكبير» تحول إلى «كابوس» وصنع ـ بعض الناس الشطار ـ من أشلاء المشروع وشظايا الكابوس مؤامراتهم الخاصة: الجريئة منها والدنيئة. أما أنا. فقد وقفت بعد٦٧ ـ ميتاً.

سألنى شاب عزيز، يصدق كلماتى ويتأمل فيها:

ـ ماذا فعلت فى ٦٧. وماذا فعلت بك؟

قلت دون تدبر:

ـ قتلتنى.. من يومها وأنا ميت. لم أعش ـ بعدها ـ يوماً حقيقياً كاملا.

بلع ريقه.. وهو يتأملنى فى ذهول.. ومضى فى حال سبيله. هالنى ما قلت، وما فعلت بالفتى. ولكننى كنت قد نقلت له جراثيمى وانتهى الأمر. ولا يمكن ـ الآن ـ تداركه..

....

فى الصبا المبكر، عندما كنت أفكر فى معنى كلمات مثل: الإيديولوچية، والدياكلتيك، والبرجوازية.. وغيرها.. كنت أتصور أننى أخترق حجباً، وأسافر الى عوالم أخرى. المعنى كان يظل غائماً. لكننى كنت أتعلق به، لعله يحل لى أزمة التعلق بأوربا أو مسألة هويتى واشتياقى الإنسانى للفلسفة. كنت أريد العثور على تجريد حى، يقدم ـ فى نفس الوقت ـ التفسير والمنهج. شئ مخالف للواقع الخانق وغير المفهوم. كنت أبحث عن تجريد جديد حى. أعيش من

خلاله، الأزمة، والأمل، وإمكانية الحل.

«العبث» ألاوروبى لم يكن مجدياً. قشرة زائفة مدعاه. والاشتراكية صارت هى الأخرى تمثالاً رائعاً، مطعوناً فى القلب، ينزف هو الآخر ـ دماً طازجاً .

لم يعد أمامى سوى أن أقوم أنا بالاكتشاف الشخصى لمعانى كل هذه الكلمات وغيرها. شخصى بمعنى أن أعرف المعنى فى داخلى وفوق أرضى أن أعانى البحث، وأن أرى ضوء الفهم يلمع فى داخلى.

أعاند أن تضيع حياتى وكلماتى وأفعالى بين «العبث» وضرورة «الرسالة».

....

صار أغلب البشر المحيطين بى: حالات أو نماذج. أما الإنسان فقد أصبح نادراً.

الإنسان الذى يدفئنى القرب منه، أو يحركنى وجوده الأصيل.

هاجر أغلب الناس «الكويسين» إلى بلاد النفط: حيث فخ النقود، أو إلى «أوروبا» حيث أكثر من فخ واحد. ولم يبقَ «على المداود إلاّ شر البقر».

كلنا هنا الآن متهمون بالعجز، بقلة «الشطارة» بقلة الحيلة، أو بالتفكير الغبى فى الأرض، والوطن فى مثل هذه المثاليات غير المجدية .

نعانى من تدهور كل شئ : الصنعة، الحرفة، الأمانة قيمة العمل وأكثرالقيم. نعانى تدهورها ـ جميعاً ـ وندافع بالكلام عن وجودها. مدافعين خاسرين عن مواقع مغتصبة.

أيامنا فوق هذه الأرض ثقيله. أقدام فلاح مصرى يخوض فى أراض صفراء جديدة، لا يعرف أين تودى به.

أريد أن أتماسك. أن أحتفظ بالحس والبصر والبصيرة. لا أريد أن أقترب كثيراً من حافة المنحدر.

....

الذاكرة الحية.. قضيتى من البداية إلى النهاية. الذاكرة المشتركة لى ولك، لنا معاً.

كيف نبقى ذاكرتنا ـ وذاكرة الناس حية ـ أن لا ننغمس فى الحاضر. وننسى الماضى، ولا نتملك وقتاً ـ حتى للتفكير: إلى أين نسير قال رئيس الوزراء الإسرائيلى، الإرهابى والشاعر: مناحم بيجين. فى مقدمة كتابه إلهام «التمرد»

«كتبت كتابى هذا لشعبى خشية أن ينسى اليهود، كما نسوا من قبل، أن هناك أشياء أثمن من الحياة. وأبشع من الموت».

الذاكرة الحية هى العاصم.الملاذ الوحيد للفرد. وللشعوب.

كنا قد عشنا يوم الاحتفال، وعيد الأضحى، واغتيال الرئيس على المنصة.. فى يوم واحد.

عشته فى شوراع القاهرة المرتبكة الخالية، وقد جسم عليها

غموض ثقيل. سمعت فى الإذاعة والتليفزيون قراءات قرآنية مصرية حزينة تنعى لى البلد والرئيس : سقط قلبى فى كعب حذائى .

صرت من يومها أخاف الاقتراب من حافة المنحدر .

...

ذاكرتى .. حياتى .. بها أحاول الخروج من الدائرة الجهنمية .

علاء الديب

القاهرة ١٩٩٤م

رقم الإيداع
٩٩/٩٨٨٤
I-S.B.N977-01-6279-5



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة».. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لا يبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع 2000

١٥٠ قرشا

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة